

هوامش على دفتر الزمان

أبو أدهم

د. عُبادة كُحيلة

أستاذ

كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

١٤٢٢ ـ ٢٠٠١

الطبعة الأولى

لوحة الغلاف : الفنان صفوت عباس

الغلاف والرسوم الداخلية : الفنان السيد عزمى

الخطوط : الفنان حامد العويضى

إهـــداء

إلى محمد عبد الغنى حسن

شاعر الأهرام

قدّم لى كتابى الأول

فهرس

الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كان ذلك فى أيام بعيدة ... سعيدة ، حين كان يصل إلى سمعى ، وأنا أدرج مدارج الطفولة .. ما أحلاها ! صوت بائع البرتقال ، وهو ينادى على بضاعته : ...يافاوىيابرتقال !

لم أكن أدرى وقتها ، ماذا كان يعنى بهذا النداء ؟ .. وإن كنت أدرى دلالته .

تمضى سنوات ... ثم تمضى سنوات ، ولم أعد أسمع هذا النداء ... فقد ذهبت يافا وأخوات يافا .

بى شوق إلى سماع هذا النداء ...

ترى هل يكون من نصيب ولدى ، أو ولد ولدى ..

لست أدرى .

.....

تمضى خمسون سنة ، وأشاهد عبر الفضائيات وجه محمدالدُرّة ... ولد صغير مثل ولدى ... تطايرت حوله رصاصات العدوان ... يستغيث ، ربما يستغيث بنا !! . لا أظن ... فقد تحولنا جميعًا إلى جثث عفنة مهترئة ... تنتظر من يلقى بها إلى أقدام الجحيم .

ما دمنا قد جعلنا السلام خيارًا استراتيجيًا ، فليمت محمد الدرة وليمت ألف درة ...

.....

بين هاتين الصورتين طريق آلام ... وألف طريق للآلام .

يسألني صديقي : أنت كاتب ... بدأت حياتك بالكتابة ، قبل أن تأخذك منا الجامعة ... فلماذا لا تكتب ؟.

أجيبه : ماذا أكتب .. ولمن أكتب .. وإلى أين أمضي فيما أكتب ؟ .

لا شيء حولي يستحق الكتابة ... لا جدوى من الكتابة ... الجدوى الآن للبندقية ... لكن البندقية ممنوعة ، فهناك سلام ، يدعونه بسلام الشجعان ، يرعاه صديق يدعونه بالصديق الأمريكي .

يتسلل إلى من بعيد صوت الشاعر القديم :

رعاة الشاء تحمي الذئب منها فكيف إذا الرعاة هم الذئاب

أغلق نوافذي ـ إذن ـ على هذا العالم ، وأكسر قلمي وأنسحب ، وربما أكتب .

لكن هاجس الكتابة ـ لا أكتمك ـ يعاودني فأكتب ، غالبًا ما أكتب لنفسي ، اليسير فقط يتخذ طريقه إلى خارج نفسي .

.....

وهذا الكتاب شتيت من مقالات ، نشر بعضها فى سنوات الستين ، ونشر بعضها الآخر (أو لم ينشر) فى سنوات التسعين ، رأيت من الأوفق أن يضمها كتاب واحد ذو عنوان واحد .

هذه المقالات ـ فى مجملها ـ قطعة من عمرى ، عبر مراحل مختلفة من هذا العمر ... عمر بدأ جميلاً وبدا جميلاً ، وتوقعات بأن يتواصل جماله ... لكن هذا العمر ، تساقطت حباته واحدةً فواحدة ، وذهب عنه ما كان به من جمال .

أتقدم بهذا الكتاب ، عسى أن يكون شاهداً على عصر ، أو بعضاً من صورة عصر .. أقدمه إلى قارئ هذا الجيل ، أو ما بعد هذا الجيل ... ليتعرّف ما كانت عليه حال جيل ، فقد كل شىء ، ولم يعد له أمل فى أى شىء... ولله الأمر من قبل ومن بعد .

الهرم ـ الجيزة فى يوم الثلاثاء غرّة رجب الفرد ١٤٢٢

الثامن عشر من سبتمبر (أيلول) ٢٠٠١

أبو أدهم

عُبادة بن عبد الرحمن رضا كُحيلة



الفصل الأول
بعضٌ من عبَق الستينيات

عبد الرحمن الرافعى ... مؤرخ الحركة القومية

فريد أبو حديد ... والرواية التاريخية

ساطع الحُصْرى ... الفكرة والتاريخ

أربعة كتب عن الشخصية المصرية



عبد الرحمن الرافعى .. مؤرخ الحركة القومية

ولد فى ٨ من فبراير سنة ١٨٨٩ بالقاهرة فى بيت علم ودين ، والده الشيخ عبد اللطيف الرافعى من علماء الأزهر ، وقد هاجرت أسرته من بلاد الشام ، واستقرت بمدينة طنطا ، واشتهر من أبنائها مصطفى صادق الرافعى وأمين الرافعى ... وعبد الرحمن الرافعى .

ومن عجب إنه فى عام ١٨٨٩ هذا أو نحوه ولد العقاد وطه حسين وسلامة موسى وهيكل والمازنى ، وغيرهم من جيل الرواد فى ثقافتنا الحديثة .

حصل عبد الرحمن على الابتدائية من مدرسة رأس التين بالإسكندرية فى سنة ١٩٠١ ، وحصل على البكالوريا من المدرسة نفسها فى سنة ١٩٠٤ ، وأراد له والده أن يلتحق بالأزهر ـ كما كانت عليه الحال فى تلك الأيام ـ غير أن عبد الرحمن فضل الحقوق ، وتخرج منها فى سنة ١٩٠٨.

وقد هيأت للرافعى نشأته البرجوازية أولاً ودراسته الحقوقية ثانيًا الاتصال بجهازات الحزب الوطنى ، وخاصةً بعد تأسيس نادى المدارس العليا فى سنة ١٩٠٦ ، وكان من المعاقل الهامة للحزب الوطنى ... وهكذا التقى عبد الرحمن بمصطفى كامل ، ومهدت له

* مقال نشر بمجلة الفكر المعاصر . العدد ٢٣. يناير ١٩٦٧ .

الفترة القصيرة التى عرفه خلالها أن يتمسك بمبادئ هذا الحزب وأن يصير من أبرز أعضائه فيما بعد .

لكن العلاقة بين عبد الرحمن الرافعى ومصطفى كامل لم تمتد طويلاً ، كما إنه لم يلتق به إلا مرات معدودة ، وعرف بعده خليفته العظيم محمد فريد الذى كان بمثابة والد أو أخ كبير ، فأتاح له فرصة الكتابة فى اللواء – وهى جريدة الحزب الوطنى – إلى جانب عمله بالمحاماة ، واصطحبه إلى أوربا فى المؤتمرات التى كان يشترك فيها الحزب الوطنى ، وعندما نفى محمد فريد من مصر فى سنة ١٩١٢ كثرت المراسلات بينهما .

كان لثورية عبد الرحمن الأولى ودراسته الحقوقية وكتاباته فى صحف الحزب الوطنى ، كان لهذا كله أثر كبير فى الدفع به إلى تأليف أول كتبه الذى صدر فى عام ١٩١٢ ، بعنوان « **حقوق الشعب** » ، حلل فيه النظريات المختلفة للدولة والحكومة النيابية السليمة ووظائف المجالس التشريعية . كما إن الاتجاه الاجتماعى الذى ظهر فى أخريات زعامة مصطفى كامل وأوليات زعامة محمد فريد أدى به إلى أن يؤلف كتاباً آخر صدر فى عام ١٩١٤ بعنوان « **نقابات التعاون الزراعية** » ، أرخ فيه للدعوة التعاونية فى مصر ، ومنشآت التعاون بها وبالخارج ، وعلاقة التعاون بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية . وقد نال

هذا الكتاب تقدير الزعيم محمد فريد الذى وصفه بأنه « **أحسن كتاب أخرج للأمة المصرية فى هذا العام** » .

عندما أعلنت الحرب العالمية الأولى تحرج موقف الحزب الوطنى بسبب مناهضته للإنجليز ، وجرت حركة اعتقالات واسعة لرجال هذا الحزب ، ونفى بعضهم إلى الخارج وألقى القبض على عبد الرحمن وأخيه أمين فى أغسطس سنة ١٩١٥ وبقيا فى السجن حتى يونية سنة ١٩١٦ .

وفى عام ١٩١٩ إندلعت الثورة فى مصر ، ولم يكن لعبد الرحمن ولا لرجال الحزب الوطنى دور كبير فى قيادتها ، إذ كانت هذه القيادة لرجال حزب الأمة القديم ، لكنه سجل انطباعاته عن الثورة فى كتابه الذى نشره مسلسلاً بجريدة الأخبار فى سنة ١٩٢١ ثم أصدره فى العام التالى بعنوان : « **الجمعيات الوطنية** » .

واشترك عبد الرحمن فى الحياة السياسية بعد الثورة على مستويات معينة إذ انتخب عضواً فى مجلس النواب عن المنصورة فى سنة ١٩٢٤ وبقى فيه سنتين ، كما أصبح عضواً فى مجلس الشيوخ عن المنصورة أيضًا منذ سنة ١٩٣٩ حتى سنة ١٩٥١ ، وولى وزارة التموين مدة أربعة شهور فى عهد حسين سرى سنة ١٩٤٩ . وخلال هذه السنوات اشترك فى إنشاء جمعيات التعاون الزراعية ، والترويج لأسهم بنك مصر، كما دعا لإنشاء بنك التسليف الزراعى والتعاونى .

أما مناصبه الأخرى التى وليها ، فقد كان سكرتيراً للحزب الوطنى أربعة عشر عامًا (١٩٣٢ ــ ١٩٤٦) ، كما ولى منصب وكيل نقابة المحامين فى سنة ١٩٤٠ ، وأصبح بعد ذلك نقيباً للمحامين .

هذا عن حياته الرسمية .

أما حياته الفكرية فترتبط أشد ما ترتبط بكتبه المعروفة بـ « **تاريخ الحركة القومية** » ، وهى أهم الآثار التى تبقت لنا منه ، والتى يعد من أجلها أول مؤرخ لمصر الحديثة . وعدة هذه الكتب ستة عشر كتاباً ، اختص الأولان بتاريخ مصر منذ أواخر القرن الثامن عشر والحملة الفرنسية ، والثالث بعصر محمد على ، والرابع والخامس بعصر عباس وسعيد وإسماعيل ، أما السادس فهو عن الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى ، والسابع عن العشر السنوات الأولى للاحتلال ، والثامن عن مصطفى كامل « **باعث الحركة الوطنية** » ، والتاسع عن محمد فريد « **رمز الإخلاص والتضحية** » .

وأرخ الرافعى لثورة ١٩١٩ بكتابين ، كما أرخ لأعقاب الثورة بثلاثة كتب تنتهى عند عام ١٩٥١ ، وهو العام الذى ألغيت فيه المعاهدة ، ثم كتب عن مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وعن عهد الثورة نفسها حتى سنة ١٩٥٩ .

ومن الممكن أن نضيف إلى هذه السلسلة كتابه الصغير عن **«معاهدة ١٩٣٦ ؛ هل هى استقلال أم حماية»** وكتابه « **تاريخ الحركة القومية فى مصر القديمة** » . كما إنه اختصر كتابه عن الثورة العرابية وعدل فيه ليصدر كتابه عن « **أحمد عرابى** » .

وقد أرخ الرافعى لحياته بكتاب عنوانه « **مذكراتى** » ، كما أرخ للفترة التى قضاها بمجلسى النواب والشيوخ بكتاب عنوانه « **أربعة عشر عاماً فى البرلمان** » . وألف كتاباً عن « **شعراء الوطنية** » . وآخر كتاب ألفه كان عن « **جمال الدين الأفغانى** » صدر بعد وفاته بشهر واحد .

وتقديراً للجهد الكبير الذى قام به عبد الرحمن الرافعى فى التأريخ لمصر الحديثة ، اختير مقرراً للجنة التاريخ بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، ونال جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية فى سنة ١٩٦٠ ... وتوفاه الله فى ٣ من ديسمبر ١٩٦٦ عن ثمانية وسبعين عاماً .

والدور الحقيقى الذى أسهم به الرافعى كمؤرخ يأتى من محاولته الرائدة للتأريخ لمصر الحديثة ، على أن هذا الدور يصدر عن نزعته الوطنية أولاً وانتمائه للحزب الوطنى ثانيًا ، فالتاريخ عنده ، كما عبر عنه أكثر من مرة فى كتبه « مدرسة الوطنية » وهو يقول فى مذكراته **«أحببت التاريخ منذ صباى ، وكنت ولا أزال أراه مدرسة لتقويم**

أخلاق الشعب ، والنهوض بتربيته السياسية والقومية وزاد تعلقى به أنى رأيت فيه على ضوء التجارب وسيلةً ناجعةً لتثقيف العقول ورفع مستوى الوطنية والوعى القومى فى النفوس » .

وتلك لفتة جميلة من الرافعى ، لكنها لا تكفى وحدها لتبرير دراسته للتاريخ ، على أننا نخرج من هذه النقطة إلى نقطة أخرى ، هى إنه اعتبر تراث الحزب الوطنى وتاريخه هما المحور الذى تدور عليه الحركة الوطنية فى مصر . يبدو هذا بوضوح إذا عرفنا إنه ألحت عليه منذ سنة ١٩٢٦ ، بعد أن تصدر الوفد الحركة الوطنية ، ثم وفاة سعد زغلول وظهور الدراسات الضافية عنه وعن دوره فى هذه الحركة ـ وهو دور كان يمس أوتاراً حساسة عند رجال الحزب الوطنى ـ أقول ألحت عليه فكرة الترجمة لحياة مصطفى كامل ، لكنه وجد أن لزعامته بذوراً نمت قبله ، ثم كانت لها آثار عاشت بعده ، فألجأه هذا إلى أن يبدأ بالتأريخ للحركة القومية ، منذ أواخر القرن الثامن عشر ، وقد ظهر أول كتاب فى هذه السلسلة فى سنة ١٩٢٩ .

ونضيف هنا إنه كان من المفروض أن يقتصر الرافعى فى هذه السلسلة على تتبع نمو الوعى القومى لدى المصريين ومراحل تطوره ، لكن كتابه الذى يحمل اسم « **تاريخ الحركة القومية** » لم يلبث أن امتد موضوعه حتى شمل تاريخ مصر الحديث كله .

فالرافعى يؤرخ للحركة القومية من منظور معين ، فهو يترجم لحياة مصطفى كامل ومحمد فريد ويجعلهما علمين على مرحلة تمتد من

سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩١٩ ، لكنه لا يفعل الشيء نفسه مع سعد زغلول . وكان الدافع له إلى هذا أن سعداً ينتمى أصلاً إلى حزب الأمة القديم ، وهو الحزب المعتدل المنافس للحزب الوطنى ، ونحن لا نبالغ هنا إذا قلنا إن كتابه الذى ألفه عن فترة العشر السنوات التالية للاحتلال ـ رغماً عن عدم أهمية هذه الفترة فى تاريخنا الحديث ـ إلا أن مؤرخنا شاء أن يبرز ما كانت عليه مصر من يأس وضياع وحيرة ، قبل أن يتسلم مصطفى كامل لواء الحركة الوطنية ويبعثها من جديد ، مع أنه كان من الممكن جعل تاريخ هذه الفترة مؤخرةً لكتابه عن الثورة العرابية ، أو مقدمة لكتابه عن مصطفى كامل .

وللنزعة الوطنية وجه آخر فى كتب الرافعى ، إذ إنه أرخ لمصر منفصلةً عن جاراتها العربيات ، ولا يعيب هذا الرافعى كثيراً لأنه كانت لمصر فى ذلك الحين ظروفها الخاصة التى تجعل مسار الحركة الوطنية فيها يختلف عن مسارها فى أقطار الشرق العربى ، لأنها كانت تناهض بريطانيا وتستعين عليها بدولة الخلافة ، فى حين كانت بلاد الشرق العربى الأخرى تناهض العثمانيين وتستعين عليهم بأوربا . وقد استمرت هذه الحال بصورة أو بأخرى حتى ما بعد الحرب العالمية الأولى بسنوات . فإذا عرفنا أن الحزب الوطنى نفسه ـ وهو الحزب الذى ينتمى إليه الرافعى ـ كان يعرف فى مصر بحزب الخلافة ، عرفنا ماذا يكون عليه بالضبط موقف الرافعى كمؤرخ .

والرافعى لا يعطى اهتمامًا كبيرًا للعوامل الاجتماعية ومساهمتها فى صنع الحدث التاريخى بل إنه يجعل الأبطال أعلامًا على مراحل معينة من التاريخ ، ونحن لا نختلف مع الرافعى فى وضوح الدور الذى يلعبه البطل ، لكننا نختلف معه فى تحديد أبعاد هذا الدور ، فهو مثلاً يرجع الفضل فى الانبعاث الكبير الذى حدث فى سنة ١٩١٩ إلى مصطفى كامل .

يقول « **فلولا الوطنية التى بثها مصطفى كامل فى نفوس المصريين خلال الثمانية عشر عامًا التى قضاها فى الكفاح ، لمرت سنة ١٩١٩ كما تمر غيرها من السنين ، دون أن تتجلى فيها روح الثورة ، فالثورة هى غرس الوطنية ، والوطنية هى نتيجة جهاد مصطفى كامل المتواصل طوال هذه السنين** » .

وقد كان لنشأة عبد الرحمن البرجوازية أولاً وانتمائه للحزب الوطنى ثانيًا أثر كبير فى تركيز اهتمامه على العوامل السياسية بالدرجة الأولى ، فالحزب الوطنى إبان زعامة مصطفى كامل وإلى حد كبير فى عهد زعامة محمد فريد كان يتجه إلى تركيا وفرنسا ، الأولى بوصفها صاحبة السلطة الشرعية فى مصر ، والثانية بوصفها المنافسة الأوربية الأولى لإنجلترا ، إذن فهو حزب يطلب الاستقلال أساسًا ، أما ما عدا ذلك من وجوه الإصلاح الاجتماعى فيأتى فى الدرجة الثانية ، ولم يتهيأ لهذا الحزب أن يضع لنفسه برنامجًا اجتماعيًا إلا بعد نكسة

الاتفـاق الودى فى سنة ١٩٠٤ ، وقـد اتضح هذا البـرنامج فى عـهـد محمد فريد الذى اهتم بإنشاء المدارس وتدعيم أركان الحركة التعاونية والنقابية ... ولكن جهود هذا الزعيم لم تلبث أن انحسرت بعد نفيه فى سنة ١٩١٢، ثم تشتيت رجال الحزب خلال سنوات الحرب العالمية الأولى .

وقد لعبت الأحداث السياسية فى مصر دوراً كبيراً فى جذب اهتمام المؤرخين بسبب خطورة هذه الأحداث من ناحية وتتابعها من ناحية أخرى ، ما بين ثورة ١٩١٩ وانتكاسها ، والإنشقاق الذى حدث بعدها ، وحادثة السردار سنة ١٩٢٤ ، وإخلاء السودان ، وحكم القبضة الحديدة سنة ١٩٢٩ ودستور صدقى وعهده الأسود ١٩٣٠ ـ ١٩٣٣ ، وإجهاض ثورة ١٩٣٥ ، والمعاهدة التى اختلف الرأى بشأنها، ثم الحرب العالمية الثانية ، وحادث ٤ فبراير ، والأحداث التى تلت الحرب ، كحادث كوبرى عباس ، واتفاق صدقى ـ بيفن ، وحرب فلسطين ثم إلغاء المعاهدة .

كل هذه الأحداث السياسية لها مضمون اجتماعى ، أو كانت العوامل الاجتماعية تشكل جانبًا عظيمًا فى طبيعة تكوينها ، لكن المؤرخين تنبهوا إليها على إنها صورة من صور الصراع بين مصر والإنجليز ، ويدخل القصر طرفًا ثالثًا .

ونضيف هنا أن الاتجاهات الاشتراكية فى تفسير التاريخ لم تكن قد برزت بعد بوضوح على المسرح ، ولم تستطع هذه الاتجاهات أن تجد لنفسها متنفسًا إلا بعد الحرب العالمية الثانية ، وكان الرافعى قد قطع شوطًا كبيرًا فى سلسلة كتبه القومية .

إذن فنحن نخلص من هذا كله إلى أن نزعة عبد الرحمن الرافعى من ناحية ، وانتماءه للحزب الوطنى من ناحية أخرى ، وظروف عصره من ناحية ثالثة ، كان لكل هذا أثر كبير فى تحديد رؤياه الخاصة للتاريخ المصرى الحديث . ولكن هناك ملاحظة أخرى على منهج الرافعى فى كتاباته فهو يتبع أسلوب الحوليات أى سرد الأحداث التاريخية حسب التتابع الزمنى ، ويملأ كتبه فى أحيان كثيرة بمواد لا تعد تاريخية بذاتها ، وإنما من الممكن أن نستعين بمدلولها التاريخى العام ، ففى عرضه لتاريخ الحملة الفرنسية مثلاً يترجم لعلماء الحملة ومهندسيها واقتصادييها وأطبائها وأدبائها ، ويذكر المعارك الحربية الصغيرة بالتفصيل ، ويلخص تراجم أعيان هذا العصر كما وردت فى الجبرتى ، ويكرر الشىء نفسه فى كتابه عن عصر محمد على وكتابه عن عصر إسماعيل . وهو يقطع حديثه عن لجنة ملنر ـ مع أهمية هذا الحديث ـ ليخبرنا بمصرع اثنى عشر طالبًا مصريًا فى كارثة قطار بإيطاليا فى سنة ١٩٢٠ ، ويقطع حديثه عن استمرار الائتلاف بعد وفاة سعد زغلول ، وإذا بنا أمام عشر صفحات عن وفاة أخيه أمين الرافعى وما قيل فى تأبينه .

على أن هذا كله لا يغض عن قدر فقيدنا الكبير كرائد فى مجال جديد من مجالات الثقافة ، فالمشاهد أن فن (أو علم) التاريخ قد بدأ متأخراً فى مصر الحديثة عن قرينه فن كتابة التراجم ، فالفن الأخير عريق فى ثقافتنا العربية ، وقد انتعش فى عصر الرافعى على أيدى العقاد وطه حسين وهيكل وغيرهم من الرواد ، ولكن على مستوى التاريخ كعلم لا نجد هذا التطور ، غاية ما بلغه قبل أن يشرع الرافعى فى تأليف كتبه التاريخية هو ما قام به الشيخ محمد الخضرى وأهل جيله من علماء الأزهر من تأليف كتبهم فى التاريخ الإسلامى على طريقة التنسيق والتهذيب أو طريقة الجمع والتبويب ، ولا تزال لهذه الطريقة الأخيرة آثار باقية تحت قبة الجامعة .

ولربما كانت مهمة المؤرخ للعصور الوسطى فى جيل الرافعى أيسر من مهمة المؤرخ للفترة الحديثة من تاريخنا ، لأن الأول فى متناوله مئات المراجع المتبقية من تلك العصور ومن عصره نفسه ، فى حين أن الرافعى لا تتوافر لديه هذه المصادر ، كما إنه لم يكن يستطيع أن يطلع على كل الوثائق اللازمة لتجميع مادته التاريخية ، وخاصةً إذا كانت هذه الوثائق سريةً ، كما إنه بطبيعة الحال لم يقرأ مذكرات كبار الزعماء ، التى لم تنشر فى عهده ولم ينشر معظمها إلى اليوم .

وقد يأخذ البعض على الرافعى رؤياه الخاصة للحركة القومية ، لكن هذه الرؤيا كانت تصدر عن ذاته وكان مقتنعًا بها ، ولم يوظفها

من أجل خدمة غرض شخصى . ولذا كان معتدلاً فى أحكامه ، هذا إذا استثنينا ما يتصل منها ببعض خصومه الوفديين ، وكلما ابتعد العصر الذى يؤرخ له ، كان هذا أدعى إلى اعتداله ، وهو فى كتابه الثانى يؤكد حقيقة أن الشعب المصرى هو صاحب الفضل الأول فى تولية محمد على ، وقد جاء هذا ثمرة من ثمرات الحركة الوطنية التى نضجت فى عهد الحملة الفرنسية ، وأنه إذا كان هناك رأى ينسب قيام النهضة المصرية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى محمد على وحده ، فإن مؤرخنا يؤكد أيضاً « **مواهب الأمة المصرية ، وحسن استعدادها للتقدم، وماضيها فى الحياة القومية** » . بل يذهب إلى أنه لولا هذا لكان محمد على واليًا كغيره من الولاة العثمانيين الذين نسيهم الناس ونسيهم التاريخ .

لقد كان عبد الرحمن الرافعى رائد تيار جديد فى كتابة التاريخ ، وكان من الممكن أن تكون توقعات هذا التيار أكثر تقدمًا واطراداً . لكن حركة الكتابة التاريخية لم تنم كثيراً بعد الرافعى ، ولا يعيب هذا الرائد نفسه ، وإنما يعيب هؤلاء الذين جاءوا بعده ... لقد كان الرافعى رائداً .. وكفى ! .

فريد أبو حديد .. والرواية التاريخية

سنة ١٩٢٦ .. صدرت رواية فى جزئين تحمل اسم « **ابنة المملوك** » ، وقد كتب على الغلاف أنها من تأليف محمد فريد أبو حديد المدرس بوزارة المعارف .. ولم تلق هذه الرواية اقبالاً من الناس فى تلك الأيام ، إذ كان الشعر هو المسيطر على الحياة الأدبية وقتها . أما القليل الذى كان يهتم بالرواية ، فلديه روايات جرجى زيدان فى تاريخ الإسلام .

ويبدو أن المؤلف نفسه قد انصرف عن التأليف فى الأدب عموماً ، إذ استغرقته أعباء الوظيفة التى أدت به إلى تأليف كتب مدرسية فى المواد الاجتماعية .. ولكن لم تمض سنوات قليلة حتى ظهرت للمؤلف نفسه رواية جديدة باسم « **الوعاء المرمرى** » ، وهو عنوان مشوق لسيرة سيف بن ذى يزن .. وأقبل الناس على تلك الرواية ، ولم يلبث أن بدا نجم جديد يلمع فى حياتنا الأدبية .

- 1 -

والحقيقة إننا لن نستطيع أن نفهم لماذا كان فريد أبو حديد هو الرائد الحقيقى للرواية التاريخية فى مصر ، بل لماذا اتجه إلى الرواية التاريخية بالذات ، إلا إذا فهمنا طبيعة العصر الذى كان يعيش فيه ،

* مقال نشر بمجلة الفكر المعاصر العدد ٣٦ . فبراير ١٩٦٨ .

وعبر عنه تعبيراً صادقًا ، ومكونات هذا الكاتب الثقافية والخلفية الاجتماعية التى كان يصدر عنها .

فمع مطالع القرن العشرين كان الشعب المصرى يبحث عن نظرية، أو قل إنه كان يبحث عن طريق .. وقد وجد أنصار المصرية فى النزعة الليبرالية والبرجوازية الوطنية الناشئة مدافعاً عن نظريتهم ، حتى إذا أتت سنة ١٩١٩ كانت الشخصية المصرية قد تبلورت فى إطار محلى ضيق، يفصلها عن الشعوب الأخرى التى تنتمى معها إلى الحضارة نفسها ، وتشترك معها فى التاريخ نفسه .

لكن هذه النزعة المحلية الضيقة التى تطورت فى بعض تضاعيفها إلى الفرعونية ، لم تلبث أن انحسرت أمام موجة القومية العربية التى أعادت إلى الشعب المصرى وجهه العربى الصحيح .

عند ارتداد هذه الفكرة القومية فى مراحلها المختلفة على حياتنا الثقافية ، نشأ تياران فكريان أساسيان ، تيار سلفى يقدس التراث ، ويدافع عنه كما هو يكاد لا يضيف إليه شيئًا ، وتيار آخر متطرف فى تجديده ، يقطع الصلة بين ماضى هذه الأمة وحاضرها .. وقد انتهى الصراع بين هذين التيارين برجوع المصريين إلى ثقافتهم العربية الإسلامية ، يستمدون منها ما يفيد حياتهم المعاصرة ، ويمدونها بما جد على الثقافة الحديثة من تطور ، مع المعايشة الصحية لظروف القرن العشرين .

ومع الثقافة الغربية الوافدة برز فى مصر اتجاه كانت التربة المصرية مستعدةً لاستقباله والترحيب به .. هذا الاتجاه هو الرومانسية التى سيطرت على الحياة الأدبية فى أوربا طوال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، كما استمرت تياراً مؤثراً خلال النصف الأخير من هذا القرن .. وكان الأدب الأوربى الذى عرفته مصر فى مطالع القرن العشرين أدباً رومانسياً بصفة أساسية .

استمد هؤلاء الرومانسيون مادتهم من تاريخهم القومى وتراثهم الشعبى الموروث ، وكلاهما يرتبط أساساً بالعصور الوسطى التى تكونت خلالها أوربا ، تدفعهم إلى هذا نزعة هروبية من واقع مؤلم يعانونه إلى ماض مثالى مزدهر .. ولا يخفى أن نشوء الفكرة القومية وتطورها فى أوربا كان له أثر كبير فى الدفع بالأوروبيين إلى هذا المجال .

فى السنوات الأولى من القرن العشرين كان المجتمع المصرى يمر بظروف مشابهة لظروف المجتمعات الأوربية فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر ، فوجدت الرومانسية مجالاً خصبًا لها فى مصر ، كان من نتائجه ظهور مدرسة أبوللو فى الشعر وظهور الرواية التاريخية عند كل من جرجى زيدان .. ومحمد فريد أبو حديد .

- 2 -

فى سنة ١٨٩١ صدرت رواية تاريخية باسم « **المملوك الشارد** » ، لكاتب لبنانى لمع اسمه فيما بعد ، وهو جرجى زيدان .. وقد أتبع هذه

الرواية بسلسلة من الروايات التاريخية وشبه التاريخية بلغت فى مجموعها اثنتين وعشرين رواية ، كان لها تأثير كبير على الأجيال التى أتت بعد من الكتاب ، مثلما كان لكتب جرجى زيدان التاريخية تأثير كبير على الأجيال التى أتت بعد من المؤرخين .

على أننا من نظرة سريعة لما كتبه جرجى زيدان فى مقدمة روايته **«الحجاج بن يوسف الثقفى»** ، نعرف أن رواياته العديدة فى تاريخ الإسلام لم تجعله رائداً للرواية التاريخية وإنما كانت هذه الروايات ارهاصاً للرواية التاريخية التى بدأت بأبعادها الفنية الحقيقية عند محمد فريد أبو حديد .

يقول جرجى زيدان فى مقدمة هذه الرواية **« وقد رأينا بالإختبار أن نشر التاريخ على أسلوب الرواية أفضل وسيلة لترغيب الناس فى مطالعته والاستزادة منه ، وخصوصاً لأننا نتوخى جهدنا فى أن يكون التاريخ حكمًا على الرواية لا هى عليه ، كما فعل بعض كتبة الإفرنج ، وفيهم من جعل غرضه الأول تأليف الرواية ، وإنما جاء بالحقائق التاريخية لإلباس الرواية ثوب الحقيقة ، فجره ذلك إلى التساهل فى سرد الحوادث التاريخية بما يضل القراء . وأما نحن فالعمدة فى روايتنا على التاريخ ، وإنما نأتى بحوادث الرواية تشويقاً للمطالعين ، فتبقى الحوادث التاريخية على حالها ، وندمج فيها قصة غرامية تشوق المطالع إلى استتمام قراءتها ، فيصبح الاعتماد**

على ما يجىء فى هذه الروايات من حوادث التاريخ ، مثل الاعتماد على أى كتاب من كتب التاريخ من حيث الزمان والمكان والأشخاص ، إلا ما تقتضيه القصة من التوسع فى الوصف مما لاتأثير له على الحقيقة بل هو يزيدها بيانًا ووضوحًا بما يتخلله من وصف العادت والأخلاق » .

من هذا ومن غيره يتبين لنا أن جرجى زيدان كان مؤرخًا أكثر منه أديبًا ، أو قل إنه أديب لأنه مؤرخ ، وقد بدأ حياته الثقافية بكتابه **«تاريخ مصر الحديث»** فى جزئين ، ثم **« تاريخ الماسونية العام »** ، وعن له ابتداءً من سنة ١٨٩٠ أن ينشر المادة التاريخية للقراء وأن يصوغها بأسلوب روائى . وقد كان فى ذهنه حين قام بهذا العمل الضخم ما قام به الكسندر ديماس من كتابة التاريخ الفرنسى منذ عهد لويس الحادى عشر فى رواياته المشهورة التى ترجم بعضها على أيدى لبنانيين وافدين إلى مصر .

وكان من عادة جرجى زيدان أنه يختار الفترات التاريخية التى بها صراع بين قوتين سياسيتين أو مذهبيتين ، كما أنه يجعل عنوان الرواية فى أحيان كثيرة هو العنوان التاريخى نفسه مثل **«فتح الأندلس»** و **« الإنقلاب العثمانى »** و **« ١٧ رمضان »** ، وتزداد النزعة التاريخية عنده ، حتى إنه كان يلجأ فى بداية الرواية إلى كتابة **«فذلكة تاريخية»** للموضوع الذى تتناوله الرواية ، وكأن ما يكتبه بحث أو دراسة

تستدعى أن يكتب لها هذه المقدمة ، وكثيراً ما كان يلجأ إلى نقل فقرات طويلة من المراجع التاريخية ، وقد يأتى فى نهاية الرواية بثبت بالكتب الهامة التى رجع إليها .

وفى عرض جرجى زيدان للأحداث التاريخية ـ التى كان يؤكد محافظته عليها والتزامه بها ـ كان يقع فيما يقع فيه غيره من الروائيين، من استغلال عنصر الأسطورة أو الخرافة ، التى تشوق القارئ أو الروايات غير الثابتة تاريخياً . فروايته « العباسة أخت الرشيد » لا تقوم على أساس تاريخى سليم ، والمدار الرئيسى لها ، وهو العلاقة بين العباسة وجعفر البرمكى وزير الرشيد ، ليست ذات أصل تاريخى ، وقد أنكر البحث الحديث وجود هذه العلاقة .

إذا انتقلنا إلى البناء الفنى نجد أن الأحداث التاريخية فى الرواية هى التى تحرك الأحداث الروائية ، وهى التى تحرك الأشخاص والعقدة ، فالمؤلف يخلق بطلين وهميين ، ويجعل بينهما علاقةً غراميةً تبدأ مع بداية الرواية وتنتهى بنهايتها ، التى غالبًا ما تكون نهايةً سعيدةً . وعادةً ما تعترض سبيل الحبيبين عقبات يتغلبان عليها .. وتمشى هذه العلاقة مع الأحداث التاريخية ، ويتحدد مسارها بتحدد هذه الأحداث .

والشخصيات عند جرجى زيدان غير مرسومة بوضوح ، أو هو يلجأ إلى الأسلوب المباشر فى رسمها ، دون أن يدع الرواية فى تطورها الطبيعى تعطينا صور هذه الشخصيات .

ومن خلال تأثر جرجى زيدان بالرواية الرومانسية جعل شخصياته هذه إما خيرةً خيراً مطلقًا أو شريرةً شراً مطلقًا ، ولا يجعل هناك درجات أو ظلالاً بين الخير والشر ، ويجعل للصدفة مجالاً واسعًا فى رواياته ، فالبطل يلتقى بحبيبته صدفة ، والأقدار تفرق بينهما صدفة ، وقد تنحل العقدة ويهنأ الحبيبان بالسعادة صدفة .

وقد أثرت النزعة التاريخية على أداة جرجى زيدان فى التعبير ، فإن السرد التاريخى (الممل أحيانا) كان ينتج عنه قلة الحوار . وإذا كان هذا نقداً موجهًا إلى الشكل عند جرجى زيدان ، فإن رواياته خالية من أى مضمون اجتماعى ، ولا تمس من قريب ولا من بعيد ظروف العصر الذى عاش فيه .

- 3 -

وقد كان لمكونات فريد أبو حديد البيئية والثقافية أثر كبير فى دفعه إلى كتابة تراجمه ورواياته التاريخية ، فقد ولد فى أسرة برجوازية مصرية، تنتمى بحكم الطبقة أو بحكم الوظيفة إلى الحزب الوطنى ، فكان والده موظفًا بالدائرة السنية ، وكان مدير هذه الدائرة هو فريد بك والد الزعيم الوطنى الكبير محمد فريد ، وحين رزق أحد موظفيه بولد أطلق عليه هذا الاسم الثنائى « **محمد فريد** » . وكان ذلك بداية الطريق لتحديد موقف محمد فريد أبو حديد من الحياة المصرية فى مطالع القرن العشرين ، ذلك الموقف الذى كان يقترب إلى حد كبير

من الأيديولوجية التى قام عليها الحزب الوطنى فى عهد زعيميه الكبيرين ، ولعل رغبته فى الإلتحاق بمدرسة الحقوق كان الدافع عليها أصلاً أن هذه المدرسة كانت المعمل الذى تخرجت منه قيادات الحركة الوطنية فى مصر خاصةً قيادات الحزب الوطنى .

وعلى هذا بدأت اهتمامات فريد أبو حديد السياسية من خلال الحزب الوطنى الذى قامت سياسته على توثيق الروابط بين مصر ودولة الخلافة ، من أجل الحصول على الاستقلال ، فالتقى فى هذه السياسة مع الخديو عباس الثانى الذى أيد الحزب الوطنى فى عهد زعيمه الأول، كوسيلة لأن يحكم مصر وحده دون الإنجليز . وارتبطت دعوة الحزب الوطنى بفكرة كان لها أثر كبير على العالم الإسلامى فى تلك الأيام ، وهى فكرة الجامعة الإسلامية التى تحولت فيما بعد إلى سياسة للسلطان عبد الحميد يدعم بها حكمه المنهار .

إذن فالمناخ الذى عاشه فريد أبو حديد فى صباه مناخ معاد للاحتلال الإنجليزى بشكل أو بآخر ؛ مناخ طابعه العام مصرى إسلامى عثمانى ، وكان من العوامل التى دفعت بكاتبنا فيما بعد إلى أن يستلهمه ويعيد تشكيله من جديد فى حياتنا المعاصرة .

يقول فى مقدمة كتابه عن « **السيد عمر مكرم** » : « ليس فى استطاعة أمة من الأمم أن تحيا فى حاضرها منعزلةً عن ماضيها ، وليس فى طبيعة الإنسانية أن تنتزع شعباً من مجرى تاريخه ، فليست الأمم إلا

مجموعةً من الأفراد ، وكل فرد فى حياته ليس إلا مجموعةً من الغرائز والطباع والميول الفطرية التى تخلفت له من القرون والآناء . فالأمة التى تريد أن تفتح لنفسها أسهل الطرق وأدناها إلى بلوغ قصارى جهدها لا غنى لها عن أن تستوحى ماضى أيامها ، لكى ترى أين تتجه تيارات أفكارها وأمانيها وعواطفها ، فإذا هى لم تستوح ذلك الماضى ، وحاولت أن تسير على منهاج مبتكر منقول كانت حريةً أن تصطدم وشيكاً أو بعد لأى بالتيار الآتى الذى لم تتنبه إلى وجهته فيقطع عليها سيرها ويعرقل سبيلها ، وقد يجرفها معه ويجتاح ما يعترضه من الجهود » .

وفى سنة ١٩١٤ تخرج فريد أبو حديد وهو فى الحادية والعشرين فى كلية المعلمين ، وكانت المهمة الموكولة إليه بعد تخرجه أن يعمل بتدريس المواد الاجتماعية ـ ومن بينها مادة التاريخ ـ ولم تكن هذه المادة قبل سنوات قليلة تخرج عن إطار التاريخ الإسلامى ، بسبب استقرارها فى معاهد الأزهر ودار العلوم ، ولكن فى كلية المعلمين كان الطلبة يدرسون إلى جانب التاريخ الإسلامى مواد التاريخ العام فى الشرق والغرب . فأصبحت لدى كاتبنا خلفية تاريخية واسعة ، دعمها بقراءته جرجى زيدان والنماذج الإنجليزية فى الرواية التاريخية ، حتى أنه ترجم فى سنة ١٩١٨ ملحمة « **سهراب ورستم** » للشاعر الإنجليزى ماثيو أرنولد ، ولم تتح له فرصة نشرها ، واكتفى بأن أديت على مسرح

المدرسة التى كان يعمل بها ، كما بدأ فى ذلك الحين روايةً تاريخيةً لم تنشر إلا فى سنة ١٩٢٦ هى رواية « إبنة المملوك » .

وفى سنة ١٩١٩ قامت الثورة الوطنية فى مصر ، وإذا كانت هذه الثورة تعبر تعبيراً واضحًا عن ذروة ما وصلت إليه النزعة المصرية ، فإنه كانت لها انعكاسات أخرى على فريد أبو حديد ، جعلته يضيف بعداً جديداً إلى تفكيره . هذا البعد هو أصالة الشعب المصرى ، وإنه ليس شعبًا خاملاً كما يقولون ، وإنما هو شعب ناهض ، يناضل ضد الظروف التى فرضت عليه من الخارج .

ولعل أوضح ما يدل على ذلك روايته « **ابنة المملوك** » التى كتبها حوالى عام الثورة ، لكنها لم تنشر إلا بعد سنوات ، وقد سجل فى هذه الرواية صحوة الشعب المصرى ، بعد رحيل الفرنسيين ، الأمر الذى جعل هذا الشعب يختار حاكمه بنفسه ، ويفرضه على السلطان كأمر واقع .

فى مقدمة هذه الرواية كتب فريد أبو حديد « أتقدم إلى أبناء وطنى بهذه الصفحة من تاريخ مصر الخالدة ، وليس أحد أكثر منى شعوراً بما فى عملى من تقصير ، ولعلى أجد عند الأدب وأهله شفيعًا من حسن قصدى إلى خدمة تاريخ بلادى » .

ثم أخذ فريد أبو حديد يتغلغل فى تاريخ الشعب المصرى يبحث عن جذور الوعى عنده ، فوجد أن تاريخ هذا الشعب يرتبط أساسًا بالفترة الوسيطة ، وهى الفترة الإسلامية ، التى تجمع شعوب المنطقة العربية كلها ، وتجعل لها تراثًا واحداً مشتركًا . وفى هذا التاريخ وجد مؤلفنا صفحات مضيئةً ، فرأى أن من واجبه المساهمة فى تجديد هذا الماضى الخالد وبعثه ، وكان لدراسته للقانون وتخرجه من مدرسة الحقوق فى سنة ١٩٢٤ أثر كبير فى مضامين رواياته وتراجمه التاريخية، فى دفاعه عن حقوق الأمة العربية .

ولكن كتب التاريخ الرسمية لا تكفى وحدها لإعطاء صورة واضحة لماضى هذا الشعب وما كان يجيش فى وجدانه من أحلام ورؤى . ووجد المؤلف أن ضمير هذا الشعب يحفل بحكايات وسير شعبية تمثل صراع الإنسان العربى ، من أجل تحقيق ذاته وتأكيد القيم الخالدة التى يدافع عنها ، ووجد أيضًا أن هذه السير لم تكتب لمصلحة حاكم أو أمير أو سلطان يطمع فى أن يحاط بهالات من المجد والخلود، كما أنها ليست تعبيراً عن السياسة الخاصة بهؤلاء الأفراد الذين يتحكمون فى أقدار شعوبهم .

انصرف فريد أبو حديد إلى هذا التراث يستلهمه ويستوحيه ، لم يعد كتابته كما فعل غيره فيما بعد ، وإنما جعله خلفيةً لازمةً يأخذ منها ما يخدم عمله الأدبى الجديد ، يأخذ منها مادةً غنيةً بالدراما يعيد

تشكيلها من جديد ، مع إعطائها الجو العام للسيرة الشعبية المتوارثة .. فعل هذا فى سيرة سيف بن ذى يزن والمهلهل (الزير سالم) وأبى الفوارس عنترة .

- 4 -

ولكن إلى أى حد يلتزم فريد أبو حديد بالحقائق التاريخية فى رواياته ؟

كتب فريد أبو حديد ثمانى روايات تاريخية أو مستوحاةً من التاريخ هى ، حسب ترتيب صدورها ـ **إبنة المملوك ـ الوعاء المرمرى ـ زنوبيا ملكة تدمر ـ الملك الضِلِّيل ـ المُهَلْهِل سيد ربيعة ـ أبو الفوارس عنترة بن شداد ـ آلام جحا ـ أنا الشعب** . وله مجموعة قصص يلعب التاريخ الدور الأساسى فيها صدرت باسم « **مع الزمان** » ، كما إن له رواية عصرية باسم « **أزهار الشوك** » .

يقول « التاريخ فى نظرى وسيلة لتهيئة الجو لأحداث الرواية لا أكثر ، وداخل هذا الجو التاريخى أتصرف كما يحلو لى ، حسب الروح التى تمليها على الأحداث والشخصيات ، والأفكار التى أعالجها وكل جو تاريخى ، أرى داخله النفس البشرية الخالدة التى استمرت فى الماضى ، ولا تزال مستمرةً فى الحاضر ، وستستمر فى كل وقت ، فقد تختلف الوجوه والملابس والعقائد والعادات ، ولكن النفس البشرية واحدة فى كل زمان ومكان » .

ولفريد أبو حديد روايتان يظهر فيهما العنصر التاريخى بوضوح ؛ الأولى هى « **إبنة المملوك** » والثانية هى « **زنوبيا ملكة تدمر** » حيث إن رواياته الأخرى يبرز فيها إلى جانب العنصر التاريخى عنصر التراث الشعبى . وسوف نترك جانبًا روايته الأولى فهى محاولة ساذجة تكاد لا تختلف كثيراً عن محاولات جرجى زيدان ، كما إن المصدر الأساسى الذى استمد منه كاتبنا روايته هذه هو الجبرتى ، ومن اليسير الرجوع إليه ، فى حين أن معرفة الجو التاريخى ومحاولة فهم الأحداث التاريخية وتتبعها تتبعاً علمياً صعب بالنسبة لزنوبيا .

يحفل تاريخ العرب القديم بدول كبيرة قامت ، ولم يتردد ذكرها فى كتبهم إلا مرتبطةً بأساطير وحكايات خرافية من الصعب تصديقها بله دراستها .. من هذه الدول دولة تدمر Palmyra ، وهى مدينة قديمة تقع وسط الصحراء السورية ، ينسب البعض بناءها إلى سليمان الحكيم . وكان عماد هذه المدينة تجارة المرور التى تأتى إليها من الشرق والغرب ، وقد أفادها موقعها هذا ثقافيًا إلى جانب الفائدة الاقتصادية إذ إن فيها التقت الثقافة الهلينية بثقافات الشرق القديم ، تدعمها دماء عربية جديدة .

فى أواسط القرن الثالث للميلاد تزعمت تدمر البادية السورية بعد انهيار زعامة بطرة ، وبلغت هذه المدينة أوج مجدها فى عهد ملكها «أُذَيْنَه الثانى odynathus . ولمع نجم أذينة هذا حين وقعت الحرب بين

فارس وروما ، وانتصر سابور بن أردشير فانحاز أذينة إلى جانب الفرس ، وراسل سابور وهاداه ، لكن سابور رد عليه بأن مزق رسالته ورمى بهديته .. عندئذ وقعت الحرب بين أذينة وسابور . وانتصر أذينة فى هذه الحرب ، ووقعت فى يديه أموال سابور وحرمه .

لم يقف أذينة عند هذا الحد ، بل إنه فتح الجزيرة ونصيبين وحران، وهدد المدائن عاصمة الساسانيين فى سنة ٢٦١ ، ثم ارتد إلى الشام ، ومضى يحارب أعداء القيصر الجديد جاليينوس Galienus . فكافأه الإمبراطور بأن منحه ملك الشام والجزيرة وآسيا الصغرى ، وجعل الجيوش الرومانية بالمشرق تحت إمرته ، وأنعم عليه بلقب يختص به الأباطرة وحدهم وهو لقب « أُغَسْطَس » .

انصرف أذينة بعد ذلك إلى نضال الفرس من جديد ، حتى يفك أسر ڤاليريان والد الإمبراطور ، ثم حدث أن أغار القوط على آسيا الصغرى، فتجرد لهم وطهر البلاد منهم ، وارتد لمحاربة الفرس ، وبينما كان يريح جنوده فى حمص تآمر عليه ابن أخيه معن Maeonius وقتله هو وابنه هيرود .

لكن أهل حمص لم يرضوا بمعن ملكًا لهم فقتل هو الآخر فى سنة ٢٦٧ ، وانتقل الملك إلى وهب اللات Vaballathus ابن أذينة تحت وصاية أمه زنوبيا .

والصورة العامة لزنوبيا فى كتب التاريخ إنها ملكة حكيمة سديدة الرأى مثقفة مستنيرة وقد عملت على توسيع ملكها ، فعندما ثار

الحزب الوطنى فى مصر بزعامة تيماجين Timagenes ، وكتب لزنوبيا يطلب عونها أرسلت جيشها بقيادة زبدا ، فتمكن من فتحها ، واضطر كلَوْديوس Claudius الإمبراطور الجديد إلى الاعتراف بسيطرتها على مصر .

اجتاحت جيوش زنوبيا بعد ذلك المعاقل القليلة التى تبقت للرومان فى آسيا الصغرى حتى بلغت خلقدونية أمام بيزنطة . عندئذ لم يجد أُورليان Aurelianus ـ وهو خليفة كلوديوس ـ وقد استبان له الخطر إلا أن يعبر البوسفور فى سنة ٢٧١ ، فاستعاد آسيا الصغرى ، فى الوقت الذى استعادت جيوشه مصر ، وانتصر على زنوبيا فى أنطاكية وفتح حمص ، وبدأ فى حصار تدمر .

فكرت الملكة فى طلب عون الفرس ورغمًا عن عدم ثقتها فى إمكانية هذا العون ، إلا أنها تسللت خفيةً من قصرها بواسطة ممر سرى فيه ، بغية الوصول إلى شاطئ الفرات ، وكان لها حصن هناك يعرف باسمها ، لكن قبض عليها خيالة الرومان قبل وصولها إلى الشاطئ بالقرب من دير الزور . وسقطت تدمر فى سنة ٢٧٣ .. وحوكمت زنوبيا هى وفيلسوفها الرواقى لونجين Longinus ، واقتيدت أسيرةً هى وأولادها ، وجعلها القيصر فى موكب نصره حين دخوله روما . ولكن القيصر رغمًا عن هزيمتها كان يقدر لها شجاعتها فسمح لها بأن تعيش فى قصر صغير بالمدينة ، وكفل لها وسائل الراحة ، حتى ماتت فى هدوء بعد سنوات قليلة .

كانت تلك هى الصورة العامة لزنوبيا كما وردت فى كتب التاريخ الرومانى .. لكن كتب التاريخ العربى كانت ترسم لنا صورةً أخرى .

ورد عنه الإخبـاريين إنه فى الزمن القـديم كـان جـذيمة الأبرش يحكم فى العـراق ، وكـانت بينه وبين عـمـرو بن الظرب من الملوك المجاورين له بناحية الجزيرة حروب . ويقولون : إن جذيمة هذا قتل فى بعض تلك الحروب ، فقامت بالملك بعده ابنته الزباء واسمها نائلة (أو ليلى) ، واعتزمت الزباء هذه الانتقام لمصرع أبيها ، فاشارت عليها أخت لها تدعى زبيبة بأن تستعين عليه بالخدعة . فكتبت الزباء إلى جذيمة تدعوه إليها ، وترغبه فى الزواج منها ، ونجحت الخدعة ، فقد أتى جذيمة إليها وقتل .

تولى الملك بعد جذيمة ابن أخته عمرو بن عدى ، فأراد الانتقام لخاله ، وأشار عليه قصير بن سعد اللخمى أن يجدع له أنفه ويضرب ظهره ففعل ، وذهب قصير إلى الزباء وزعم أن عمراً هو الذى فعل به هذا ، ونجح فى أن يصبح من خاصتها ، تأتمنه على أسرارها ، واشتغل بالتجارة . وذات يوم أتى قصير بقدور كثيرة محملة على البعير ، فلما وصل إلى المدينة فتح القدور ، فخرج منها عمرو بن عدى وأصحابه .. واندفع عمرو إلى الزباء يريد قتلها ، فهربت إلى الممر السرى ، وكان قصير قد أعلم عمراً بهذا الممر فتتبعها ، وقبل أن يصيبها سيفه شربت السم وهى تقول : « بيدى لا بيدك أنت يا عمرو » .

الأسطورة العربية كما رأينا ذات شبه بالأحداث التاريخية التى حدثت ، فالزباء تصحيف للاسم الآرامى لزنوبيا وهو « **بيت زباى** » ، وعمرو بن عدى أول ملوك الحيرة كان معاصراً هو وولده امرؤ القيس لأذينة وزنوبيا ، وزنوبيا نفسها كان لها حصن على الجانب الآخر للفرات ، والممر الذى يتحدث عنه الإخباريون ورد ذكره فى تواريخ الرومان .

والدارس لكلتا الروايتين التاريخية والأسطورية يعرف أن الزباء هى نفسها زنوبيا ، غير أن المؤلف لسبب نجهله جعل الزباء فى روايته جدةً لزنوبيا .

لكن إلى أى حد طابقت رواية « **زنوبيا ملكة تدمر** » الوقائع التاريخية مادام المؤلف قد استند هنا إلى هذه الوقائع وحدها ؟

الحقيقة أن الخطوط الأساسية للرواية تتفق مع وقائع التاريخ ، لكن المؤلف هنا تحرك داخل الإطار العام ، وإلى جانب الشخصيات التاريخية أضاف شخصيات أخرى من خياله ، وحاول أن يبرر بعض الأحداث التاريخية التى لم تعرف أسبابها ، وأن يستفيد منها فى خلق حركة درامية داخل الرواية ؛ فمنشأ الخلاف عنده بين أذينة وابن أخيه معن المنافسة التى قامت بينهما فى الصيد . وورد فى تاريخ جِبون Gibbon أن لونجين الفيلسوف كان يدافع عن الملكة أثناء المحاكمة ، يدعى أنه هو الذى دفعها إلى قتال الرومان .. هنا يجعل المؤلف السبب هو أن لونجين كان يحب الملكة حباً أفلاطونياً .

أما زنوبيا فالمعروف تاريخيًا أنها ملكة مثقفة ثقافةً عاليةً ، ومادام التاريخ يذكر هذا ، فلماذا لا تكون هناك مناقشات بينها وبين أستاذها لونجين تقطع فصولاً بكاملها من الرواية . وإذا كان بعض المؤرخين يؤكد أن زنوبيا كانت مسيحية ، فى حين يؤكد آخرون أنها كانت وثنية ، فإن المؤلف يتخذ موقفًا وسطًا ، فيجعلها وثنيةً تعطف على المسيحيين ، وقد أثار هذا العطف الحزب الوثنى فى المدينة .. هذا الحزب الذى يتزعمه الكاهن .

والمؤلف فى حماسه لزنوبيا يردد فى روايته الزعم القائل بأن هذه الملكة سليلة كليوباترة ملكة مصر ، والذى حدث أن زنوبيا رددت هذا الزعم حين اعتزمت ضم مصر إلى أملاكها ، ويزيد المؤلف بأنها اتخذت فى مقدمة تاجها الذهبى المحلى بالجوهر رأس الأفعى التى اعتاد ملوك مصر أن يجعلوها فى تيجانهم .

ولكن المؤلف فى حماسه لزنوبيا وحرصه على أن يبقى لها فى النهاية شعاع من الأمل ، ذكر أن أورليان قد جعل ابنها وهب اللات (وقد غرق فى البوسفور تاريخيًا) جعله ملكًا على أرمينية .

إذن فالأساس التاريخى لروايات فريد أبو حديد سليم فى جملته ، وإن تصرف أحيانًا فى التفاصيل .. ولكن كيف كانت المعالجة الفنية فى هذه الروايات ؟؟ .

- 5 -

بدأ فريد أبو حديد حياته الأدبية رومانسيًا ، وقد تخللت هذه النزعة الرومانسية أعماله كلها ، لكنها تتضح فى روايته الأولى **«إبنة المملوك»** التى تكاد لا تختلف كثيراً عن روايات جرجى زيدان ، فى حين نلمس فى رواياته الأخرى مرحلة أكثر تطوراً ، هى مرحلة الواقعية النقدية .

ورواية **« ابنة المملوك »** تدور أحداثها خلال السنوات الحاسمة التى تلت رحيل الفرنسيين من مصر ، وهى الفترة التى تصارعت خلالها ثلاث قوى .. هى قوة المماليك وقوة الأتراك وقوة الشعب . وقد استطاعت هذه القوة الأخيرة أن تنتصر وأن تختار حاكمها بنفسها وتفرضه على السلطان .

والبطل الرئيسى فى الرواية هو **« على »** .. فتى عربى قدم إلى مصر من الحجاز ، وغرقت سفينته عند بنى سويف أمام قصر الأمير المملوكى عمر بك ، وتعرف على ابنة الأمير – حورية – وأحبها وعمل بخدمة أبيها .. ويقبض على عمر بك خلال الصراع بين الأتراك والمماليك على السلطة ، ثم يطلق من حبسه بعد عزل الوالى التركى خورشيد باشا ، ويصبح على من رجال الباشا الجديد الذى اختاره الشعب ، ويعيش فى جو تحيط به المؤامرات من كل جانب ، حتى يلقى مصرعه فى إحدى هذه المؤامرات ، وتعيش حبيبته بعده على العهد لا تتزوج .

والطابع العام للرواية رومانسى صارخ ، وهو ما يتضح فى الوصف والأحداث والشخصيات فالمؤلف يصف حال على حين رأى حورية لأول مرة : « أرأيت كيف يخفق النسيم الزلال بين ثنايا الأزهار ! ، أرأيت كيف تدخل أنغام الهديل بين الأوراق فى ساعات الأصيل! ، أرأيت كيف يتغلغل الماء إلى النفوس دخول السحر ! ، أرأيت كيف يتنفس الصباح فى فضاء السحر ! ، أرأيت كيف تدب حياة الربيع فى الأكمام والأوراق ! . هكذا دب فى قلب على عند ذلك روح جديد وسرور شامل ، فلما سار كان كأنه سائر على قدميه بل طائر فوق تلك الأرض التى صغرت تحته ، وما كان يتردد فى قلبه إلا قول واحد ؛ لقد كلمتنى . وقضى الوقت من تلك الساعة إلى بعد الغروب وهو راض عن الحياة مخمور العقل بما نال من توفيق » .

أما الأحداث ، فالتاريخ هو الذى يحكم تحركها ونموها ، وتلعب الصدفةً جانبًا كبيراً فيها ، فصدفةً تغرق المركب أمام قصر الأمير ، وصدفة يلتقى على بحورية ، وصدفةً أيضًا تقع فى يديه رسالة سرية موجهة من المتآمرين المماليك فى الصعيد إلى زملائهم فى القاهرة . وما دامت الرواية رومانسيةً فلابد أن يصطدم على فى حبه بمجموعة من العقبات ، فهو فرد عادى من الشعب وهى أميرة ، وهناك منافس قوى له هو همام بن حازم البدوى ، كما إن هناك من ينفس عليه إحسان الأرنئودية التى كان الباشا يزمع أن يزوجها له . ولابد للبطل أن

يتعرض فى سفره من بنى سويف إلى القاهرة لمتاعب هائلة يتغلب عليها ، وكأنه أوديسيوس راجعاً إلى وطنه ايثاكا .

ويندفع المؤلف فى رسمه شخصياته فيجعل فى روايته معسكراً للأخيار . على وحورية والسيد عمر مكرم وعمر بك (العاطف على الفلاحين) ، وفى الجانب الآخر معسكر الأشرار ؛ البرديسى ويس بك وهمام بن حازم . وعلى هنا هو البطل المقدام الذى يستطيع ـ ولم يكن يعرف فنون الحرب والفروسية ـ منازلة همام بن حازم البدوى الجسور وأن يتغلب عليه .. ويضحى فى نهاية الرواية بحياته كلها من أجل الأمير المملوكى الذى يدين له بالفضل .

وكثيراً ما كان يلجأ المؤلف إلى السرد التاريخى البحت ، ففى خلال كلامه عن الصراع بين محمد على والبرديسى يخرج عن التطور الطبيعى للأحداث ويقول « وعلى هذا انفرد البرديسى بتدبير خطته وعزم على أن يرسل أتباعه من أمراء المصريين يدعوهم إلى الحضور إلى القاهرة فى موعد محدد بعد نحو أسبوع ، وكان يقصد بذلك أن يملأ القاهرة بأتباعه ، حتى يأخذ منافسه محمد على على غرة » .

وصورة السيد عمر مكرم طوال الرواية أنه كان مقرباً من محمد على ومصاحباً له ، والحقيقة ـ وكما ذكر المؤلف فى كتابه عن السيد عمر مكرم ـ أن المودة بينهما قد انقطعت ، عندما بدأ النضال الشعبى

ضد الحملة الإنجليزية سنة ١٨٠٧ ، ونشأت الجفوة حين اتضح اتجاه محمد على إلى الاستبداد ، فى حين أن أحداث الرواية تغطى مساحةً زمنيةً تصل إلى سنة ١٨٠٩ .

ورغمًا عن هذا فإذا كان هناك جديد أضافه فريد أبو حديد فى هذه الرواية ، فهو إنه أضاف إلى أبطال الرواية التقليديين عند جرجى زيدان بطلاً جديداً .. هذا البطل هو الشعب ، فعلى ابن من أبناء الشعب ، وعمر مكرم زعيم الشعب .. وهناك أبطال آخرون ورد ذكرهم عند الجبرتى مثل ابن شمعة وحجاج الخضرى ، وهؤلاء دفع بهم المؤلف إلى أحداث الرواية .

- 6 -

وفى كتابات فريد أبو حديد نلاحظ أن الوصف خاصةً ما اتصل منه بالطبيعة ومشاعر البطل يحتل جانبًا كبيراً فى رواياته ، ولقد كان الوصف عنده هو المدخل للرواية ، يقابل عند جرجى زيدان فذلكاته التاريخية .. إنه كان يجعل الوصف هو الخلفية اللازمة للدخول إلى الأحداث ، ساعدته على ذلك نشأته الريفية وبقايا إحساس رومانسى قديم وطبيعته الشاعرة التى جعلته فيما بعد يترجم ماكبث شعراً ، وأن تكون محاولاته المسرحية الأولى ـ المؤلفة والمترجمة معًا ـ منظومة شعراً .

والوصف عنده متحرك ، يصوغه بإحساس الشاعر والفنان معًا ، أشبه بصورة متعددة الألوان ، ويتأكد فى افتتاحيات رواياته ، ففى **«زنوبيا»** تبدأ الرواية : **« كانت المدينة لا تزال هادئة ساكنة لا يسمع فيها إلا نفس النسيم الوديع ، إذ يهب بين سعف النخيل الباسقة ، وكانت النجوم ترنو إلى الطرق الخالية ، كأنها تهوم للنوم بعد طول السهر . وانبلج الفجر من الأفق الشرقى متباطئًا ، كما تفتح فتاة منعمة عينيها فى استرخاء وفتور ، وكان القمر قد غاب فى الأفق الغربى منذ حين ، وشمل الفضاء سكون عميق »** .

وقبل أن يدخل المؤلف فى أحداث الرواية كان يعطينا بانوراما واسعةً للمناخ الذى تعيش فيه هذه الأحداث ، ففى **زنوبيا** يعرض صوراً متلاحقةً للحياة العربية داخل المدينة ، وما بلغته تدمر من مجد فى هذا العهد ، والترف الذى كان يعيش فيه أهلها وحياة أميرها فى جده ولهوه ، وصوراً أخرى للصراع بين الوثنية والمسيحية . ثم تبدأ الأحداث تتحرك مع خطر سابور .

لم يعد البطل عند فريد أبو حديد هو البطل الرومانسى القديم الذى نراه فى **« ابنة المملوك »** ، وإنما صار محكومًا بالنوازع والعادات والميول الفطرية ، يتأثر بالبيئة حوله ويؤثر فيها ، والأحداث هى التى تحركه ، فمع أن سيد زهير شاب مثقف متين الأخلاق إلا إنه قد ينطلق لسانه بأقذع السباب ، حين يصل التوتر إلى غايته ، كما إنه

ليس معصوماً من الخطأ ، الخطأ حتى فى حق الآخرين ، وإن كان عن غير قصد ، ولم لا وقد تحولت فطومة التى كانت تحبه إلى امرأة تبيع جسدها لمن يريد .

والشخصية عنده تتطور وتنمو ، فجحا نفسه يتحول من سلبى مسالم إلى ثائر لا يتورع عن أن يقف فى وجه تيمورلنك ، ويجادله وهو غير مطمئن إلى رأسه التى يحملها بين كتفيه ، وحمادة الأصفر فى «أنا الشعب» يتحول من شخص ضائع يعمل فى خدمة السيد أحمد جلال ضد الشعب إلى شخص آخر يعمل فى خدمة الشعب ضد أحمد جلال .

وقد تتحول الشخصية عند فريد أبو حديد إلى شخصية ذات طبيعة تراجيدية تذكرنا بأبطال المآسى الاغريقية ، فقد تحمل هذه الشخصية نقصًا فى طبيعتها ، يكون هو السبب فى مأساتها . فزنوبيا تريد أن تحقق ذاتها مهما كانت ظروفها ، لكنها لا تجد ذاتها هذه تتحقق فى الحب ، ولا فى الفلسفة ، ولا فى مد حدود دولتها ، حتى تتحطم حياتها كلها على يدى أورليان .

والمهلهل يطالب بدم أخيه كليب من قاتليه ، فاجتمعت إليه قبائل العرب تنصره على أعدائه ، واندفع المهلهل يقتل قاتلى أخيه دون رحمة ، فلما زادت حدود القصاص انقلبت عليه القبائل ، وحاربته

فمات وحيداً طريداً أسيراً .. وتشبه شخصية امرئ القيس شخصية المهلهل ، فهو يطلب أيضًا من قبائل العرب أن تنتصر له فى أخذ ثأره من بنى أسد قتلة أبيه ، وتسرع القبائل إلى نجدته . لكنها انصرفت عنه عندما وجدت إنه لا يتردد فى الغدر ، ولا يقتنع بما حققه من ثأر ، حتى الجأته الظروف إلى أن يترك البلاد ليطلب عون الروم ، لكنه لا يحصل على هذا العون ، ويموت فى عودته كما مات المهلهل دون عون ولا سناد .

وقد ارتد التأثير الدرامى عند فريد أبو حديد فى الحوار ، وكثيراً ما يكون الحوار بين طبيعتين متضادتين أو بين موقفين مختلفين ، ويتضح هذا عندما يبلغ التوتر غايته ، ويتحول الحوار هنا إلى حوار درامى فى دلالته الواضحة على الموقف ، فيه خطابية وفيه صراحة ووضوح ، وفيه عرض للحالة النفسية عرضًا مباشراً ، مثل الحوار بين عنترة وأبيه ، والحوار بين جحا وتيمور ، ومشهد محاكمة زنوبيا وهو أحسن فصول الرواية .

ولا عجب فى أن يتحول الصراع عند فريد أبو حديد إلى دراما ، فإنه فى بداية حياته الأدبية ترجم للمسرح ، بل شرع فى أن يصبح كاتباً مسرحياً ، لولا أنه وجد من الظروف ما منعه من ذلك .

فإذا انتقلنا إلى المضمون نجد أن المؤلف يعالج قضايانا الاجتماعية قبل الثورة من خلال الإطار التاريخى العام .. إنه يعالج قضايا الإنسان فى مجتمع تتفاوت فيه مكانة الإنسان ، مجتمع تحكمه قوانين صارمة، وتتحدد فيه مكانته تلك بأصله لا بعلمه ، بثروته لا بشرفه ، بقوته لا بحقه . فعنترة هو فارس القبيلة المقدام الذى يصد عنها هجمات الأعداء وشاعرها المبرز الذى يسجل مفاخرها فى قبائل العرب ، أى أنه جمع أفضل ما يطلبه المجتمع فى الرجال ، الفروسية والشعر .. لكنه عبد ، عبد يباع ويشترى ليس له الحق فى أن يحيا حياة كريمة ، وليس له أن يتطلع إلى عبلة حبيبته وابنة عمه .

عندئذ يحتج عنترة على هذا المجتمع وقيمه ، ويأبى أن يسرع إلى نجدة قومه حين دهمتهم خيل الأعداء .. لكن عنترة يتخلى عن موقفه بعد إلحاح شداد ، واعترافه به ولداً له ، فيخلص القبيلة من المهانة التى لحقت بها ، ويحررها وهو العبد من الرق والاستعباد . ويتطلع بعد ذلك إلى عبلة ، لكنه يصطدم بأنه لا يملك المهر الجدير بها ، فيذهب إلى الحيرة ، يغير على نوق الملك النعمان ، وتدور معركة ضارية بينه وبين رجال النعمان ويؤسر ، وعندما يقابله الملك يعجب بفروسيته وشجاعته ، ويعطيه بالرضا ما جاء يأخذه بالقوة .. ويرجع عنترة إلى قومه ، وقد تحقق أمله فى الزواج بعبلة .

لقد استطاع عنترة أن يفرض نفسه على مجتمعه ، ولهذا مغزى يرتبط بحياتنا المعاصرة فعنترة هو الشعب المصرى فى مجتمع ما قبل الثورة .. الشعب الذى حرم من حريته ، وحرم من عمل يده ، وكيف إنه باستطاعة هذا الشعب أن يعيد صنع الحياة من جديد على أرضه .

ولفريد أبو حديد رواية أخرى صدرت فى سنة ١٩٤٦ ولم تحظ بشهرة كبيرة ، انتقل فيها من الإحساس القومى الخاص إلى الإحساس الإنسانى العام . هذه الرواية هى « **آلام جحا** » وجحا كما صوره المؤلف ليس جحا بصورته التقليدية المعروفة ، وإنما هو جحا العاقل الحكيم الذى يعيش فى وطنه ما هوش (ماهو شىء) غريباً بين قوم لا يعرفون قدره ، ويسخرون من حكمته .. ويحاول أن يجعل نظرة الناس تتغير ، لكنه لا يجد إلى ذلك سبيلاً .

إنه يتساءل : « **يعجب الناس منى ويقولون أنى صعلوك ، أتطاول على مقام لا ينبغى لى أن أتطاول إليه ، حقّا إنى فقير ، ولست أدعى الغنى ، وضعيف الجاه ، ولست أدعى القوة ، ولكنى مع ذلك أدرك ما يفوت عقول هؤلاء .. إن الأسرار تتفتح لى ، وينابيع الآيات تتدفق فى صدرى ، ولست اعبأ بشىء مما يرغب الناس فيه ، ولا أرهب مما يرهبون ، فما الذى يمنعنى أن أتطلع إلى ما أريد** » .

حاول جحا أن يجد الخلاص فى الطبيعة خارج المدينة ، فى طيف فتاته التى يحمل لها الحب منذ سنوات بعيدة ، لكنه يترك هذه الرؤى

الرومانسية ، ويرتد إلى أرض الواقع ، يحاول من جديد أن يغير منه فيترك مدينته إلى جانبولاد (النفس الحديدية) وهناك يجرب أسلوبه نفسه فى ماهوش ، لكنه وجد فى جانبولاد النماذج نفسها التى وجدها فى ماهوش ، بل هى نماذج أقسى وأعتى . فالناس طبقات ، هناك أصحاب الريش والأذناب المعلقة على القلانس ، وهؤلاء هم طبقة الحكام (الأرستقراطية) ، تليهم طبقة أصحاب القدور ، وهى قدور مملوءة بالذهب الأصفر ، كلما جمع أحدهم قدراً منها ختمها ، ووضع على داره علمًا ، وهؤلاء هم الطبقة الغنية (البرجوازية) ، وفى قاع المجتمع تقف طبقة من لا لهم ريش ولا أعلام « وهؤلاء عرفوا كيف يصمتون » .

لكن جحا لم يصمت ، أراد أن يغير الوضع الذى تعيش فيه المدينة، فماذا يملك .. إنه لا يملك غير الكلمة .. فليناضل بالكلمة . تحول جحا فى جانبولاد إلى فقيه يعلم الناس فى المسجد أمور دينهم ، علمهم أن الحياة فيها شىء آخر أسمى من الذهب ، وأسمى من السلطان ، وأن أدنى مراتب الإنسان أن يعمل على سعادة نفسه دون سعادة الآخرين .

يصطدم جحا فى نضاله بالجندى الغاشم والقاضى المنافق .. وتيمور لنك . إن جحا يقف فى صف الطبقات المظلومة ، يدافع عنها، ويطالب بحقها فى أن تحيا حياة حرةً كريمةً .. إنه يدافع عن السوقة والرعاع ، ويفخر بأن يكون منهم .

« السوقة الرعاع !! من هؤلاء ، لا أعرف سوقةً ولا رعاعًا إلا هؤلاء الذين يملأون الأرض فسادًا ، وأما رجل الحقل الذى يلوث يديه بالطين ، ويسير عارى القدمين ممزق الثياب ، ويذهب آخر اليوم إلى أهله بحزمة من الفجل ورغيفين ، أما هذا الرجل فرجل وهب نفسه للعمل ، ووهب ماله إلى الآخرين ، فإذا كان من السوقة الرعاع ، فما أحب إلى أن أكون منهم » .

وتمضى أحداث الرواية ويسجن جحا .. لكن الجماهير التى ضحى من أجلها ، تكون قد أدركت المعنى الحقيقى لثورته ، فتثور هى الأخرى .. ويضطر تيمور إلى أن يخرج جحا من حبسه ، ويتحول هو نفسه بجبروته وسلطانه إلى تلميذ له يعلمه الحكمة .

ويغادر تيمور جانبولاد .. ويعود إليها سلطانها العادل ، ويصبح جحا إمامًا له ، يعلمه أمور الدين ، ومستشارًا يعلمه أمور الدنيا .

ويتخذ المضمون الاجتماعى فى **« أنا الشعب »** صورة عصرية ، مدارها سيد زهير شاب مثقف ، يريد أن يحقق ذاته فى مجتمع مصر ما قبل الثورة .. مات والده تاركًا معاشًا ضئيلاً لأمه وأخته ، فيقطع دراسته بعد أن حصل على الكفاءة ، ويبدأ رحلة الكفاح من أجل البحث عن عمل ، لكنه لا يجد الوساطة التى تؤدى إليه . وكان الكفيل له بعدم التضور جوعًا أن يعمل فى وظيفة صغيرة ، لا تناسب مؤهله ولا ثقافته بمحلج السيد أحمد جلال ، وهو صديق قديم

للعائلة، ابتسمت له الدنيا فى سنوات الحرب ، فأصبح غنياً ، لكن غناه هذا لا يمنعه من أن يستغل عماله ، ولا أن يتاجر بالسياسة .

ويتمرد سيد زهير على هذه الأوضاع ، فاستقل بنفسه ، وبدأ يعمل لحسابه برأسمال صغير ، وينجح فى البداية ، وكان من الممكن أن يصبح فى مستقبل أيامه مثل السيد أحمد جلال .. لكنه لا يجد فى هذا العمل وسيلته من أجل خدمة الجماهير ، فيتركه إلى الصحافة ، ومنعه ضميره النقى من أن يتاجر بالكلمة ، لخدمة الطبقة التى تستغل، ويتعرض فى تلك الأثناء لأن يسجن مرةً ومرةً .. ويتعرض للتشريد والضياع ، لكنه يأبى أن يتخلى عن مبدئه .. ويستمر فى النضال .

إن الشعب ينتصر دائمًا فى روايات فريد أبو حديد .. لقد خرج سيد زهير من حدود مأساته الخاصة إلى المأساة الإنسانية العامة .. المأساة التى كان يحياها الشعب جميعه . فقد فتحت أمامه التجارب الطريق الصحيح للتغيير .. التغيير عنده ليس هو الإصلاح كما كان يرى صديقه عبد الحميد عباد الثورى القديم ـ الذى فرضت عليه الظروف أن يسكت ـ الطريق الصحيح عند سيد زهير هو الثورة . إنه يجادل صديقه ويقول « لا أفهم سوى ما يفهم كل حى ، أفهم أن أذهب لأجاهد ، وأجمع الناس من أهل هذا الجيل ليجاهدوا ، هؤلاء الذين أعيش بينهم وأراهم وأعاملهم ، هم الذين يقع عليهم واجب الجهاد من أجل حريتهم وكرامتهم وحقوقهم المسلوبة .. لا شىء غير أن يقوم العبيد بالثورة من أجل حريتهم » .

تلك هى بعض القضايا الاجتماعية التى عالجها فريد أبو حديد فى رواياته ، شىء جديد أضافه إلى الرواية التاريخية ، لا نجده عند جرجى زيدان ، بل لا نجده أيضًا عند بعض معاصريه الذين كتبوا الرواية التاريخية ، مثل على الجارم .

لقد أضاف محمد فريد أبو حديد إلى الشكل ، وأضاف إلى المضمون مما يجعله بحق الرائد الحقيقى للرواية التاريخية والأب الشرعى لها .

وإلى جانب ريادته فى الرواية التاريخية ، فقد أثرى فريد أبو حديد أدبنا العربى بتجاربه الناجحة فى مجال الشعر المرسل والتراجم التاريخية والتأليف التاريخى البحت ، الأمر الذى يجعلنا نذكره دائما بالشكر والعرفان .



ساطع الحصرى... الفكرة والتاريخ

العظيم ـ أى عظيم ـ لا يكون عظيمًا إلا بالقدر الذى يفهم به عصره ، يعبر عنه ويضيف إليه ، يعطيه أكثر مما يأخذ منه .. يسبقه .

وساطع الحصرى ـ أبو خلدون ـ إنسان فهم وعبر وأضاف وأعطى وسبق . وليس ما نكتبه هنا تقويماً لساطع الحصرى ، ولا لفكر ساطع الحصرى ، فهذا أمر يحتاج إلى كتاب مستقل . لكننا فى مجال التعريف بالرجل .. والنظرية ، ووضعهما كليهما فى تيار العصر .

ففى غضون القرن التاسع عشر بدأت رياح التغيير تفد إلى الشرق العربى من أوربا ، وأسهمت هذه الرياح فى إعادة تشكيل المظاهر العامة للبنية العربية الواحدة ، فى أقطارها كلها .

وكانت الفكرة القومية أحد هذه المظاهر .

ولعوامل كثيرة ـ لا مكان لشرحها الآن ـ وجدت هذه الفكرة التربة الصالحة ، والمناخ الملائم لنموها ، فى بلاد الشام ؛ خاصةً فى منطقة الساحل . وكان لإخواننا فى الشام الدور الأهم فى مجال القيادة الفكرية لحركة القومية العربية ، التى كانت من بعض صورها قبل عام ١٩١٦ حركةً ضد ـ تركية أو حركةً ضد ـ عثمانية .. وكانت هذه الحركة تنمو نمواً طردياً مع نمو العسف التركى من ناحية ، ونمو الدعوة الطورانية من ناحية أخرى .

---

* مقال نشر بمجلة الفكر المعاصر . العدد ٤٨ . فبراير ١٩٦٩ .

وجاءت الثورة العربية الكبرى فى سنة ١٩١٦ لتكون ذروة هذه النزعة فى مرحلتها الرومانسية الخصبة .. على أن هذه الثورة كان مفكروها السياسيون من السوريين ، وضباطها من العراقيين ، وكان قسم كبير من جنودها من أهل الحجاز .

وما حدث بعد عام ١٩١٦ من أحداث معروف ومشهور ، نلخصه فى أن ثمة انتكاسةً حلت بالفكرة القومية .. عرف العرب بعدها أن الحماسة العاطفية وحدها لا تكفى ، وأنه لابد وقبل كل شىء من تعقيل الحركة العربية والتنظير لها ، وقد كان هذا من شأن أحد مفكريهم .. أتى هذا المفكر من حلب .

- 1 -

وساطع الحصرى .. أبو خلدون ، كاتب ومفكر متعدد المواهب ، رجل لديه أكثر من محور تدور حوله حياته ، وهى حياة مديدة حافلة .. مواطن عربى من حلب ، ولد عثمانياً ، ثم أصبح سورياً فعراقياً ، قضى فترة من حياته فى البلقان معلماً للطبيعيات ، بعد الحرب العالمية الأولى أصبح وزيراً للمعارف فى حكومة الملك فيصل فى سوريا فى سنة ١٩٢٠ ، ثم رافقه إلى العراق ، وكان من جملة المناصب التى وليها هناك مديرية المعارف ، وعمادة كلية الحقوق ، قضى فى العراق عشرين عامًا ١٩٢١ ـ ١٩٤١ ، اشترك فى حركة رشيد عالى الكيلانى ، غادر العراق ، أصبح مستشاراً للإدارة الثقافية بجامعة الدول

العربية عام ١٩٤٨ ، حيث قضى سنتين ، ثم أصبح عميداً للمعهد العالى للبحوث والدراسات العربية وأستاذاً للقومية العربية ، عند تأسيس هذا المعهد فى سنة ١٩٥٣ ، واستقال فى عام ١٩٥٧ .. عاش فى مصر سنوات طويلةً ، ونال تقديراً خاصّاً من حكومتها .. قبل سنوات عاد إلى العراق ، حيث عاش بقية عمره ، حتى مات فى ٢٥ من ديسمبر سنة ١٩٦٨ .

وإذا كنا قد اكتفينا هنا بهذه السطور من حياة ساطع الحصرى ، فلأنه من المفكرين القائل الذين يتطابق فكرهم مع واقعهم ، بحيث يمكن أن نقول : إن حياة ساطع الحصرى هى فكر ساطع الحصرى ، والفكرة القومية هى الفكرة الأساس التى تعد أفكار ساطع الحصرى الأخرى امتداداً لها أو فروعاً تنبع منها .

وساطع الحصرى من الكتاب الذين يصعب حصر إنتاجهم أولاً ، وتحديد مجالات اهتمامهم ثانياً . فكتبه الهامة فى معظمها مقالات أو محاضرات على فترات متباعدة ، جمعها المؤلف بعد سنوات ، وبعض كتبه أضاف إليها فصولاً من كتب أخرى له ، أو أضاف إليها فصولاً جديدةً ، على أن هذه الكتب بصفة عامة تدور حول الخمسين كتاباً .

هذه الكتب .. تعبر عن ثقافة متعددة الجوانب عند المؤلف .. من الممكن أن نقسمها إلى أربعة مجالات رئيسية ، تاريخ ، تربية ، إجتماع ، أدب .

وتتصل هذه المجالات بشكل أو بآخر بالدعوة التى عمل ساطع الحصرى للتنظير لها ، وكرس حياته من أجلها .. وهى الدعوة القومية العربية .

من هذه الكتب الخمسين تسعة كتب تتحدث عن النظرية القومية، والنظرية القومية العربية بشكل مباشر وهى :

١ ـ آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية ١٩٤٤ .

٢ ـ محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ١٩٥١ .

٣ ـ آراء وأحاديث فى القومية العربية ١٩٥١ .

٤ ـ العروبة بين دعاتها ومعارضيها ١٩٥٢ .

٥ ـ العروبة أولاً ١٩٥٥ .

٦ ـ دفاع عن العروبة ١٩٥٦ .

٧ ـ ما هى القومية ١٩٥٩ .

٨ ـ حول القومية العربية ١٩٦١ .

٩ ـ الإقليمية .. جذورها وبذورها ١٩٦٣ .

ويستطيع القارئ غير المتخصص الذى لم يتيسر له أن يقرأ كتب ساطع الحصرى أن يكتفى بقراءة كتابه « **أبحاث مختارة فى القومية العربية** » الذى صدر بالقاهرة عام ١٩٦٤ ، ويتضمن أكثر وأهم البحوث النظرية مقتبسةً من كتبه التسعة .

- 2 -

في كتابه « آراء وأحاديث في الوطنية والقومية » يقول :

« الوطنيـة ، هي حب الوطن والشعـور بارتبـاط باطني نحـوه ، والقومية ، هي حب الأمة والشعور بارتباط باطني نحوها ، والوطن ـ من حيث الأساس ـ إنما هو قطعة من الأرض ، والأمة ـ في حقيقة الأمر ـ إنما هي جماعة من البشر . فنستطيع أن نقول ـ بناءً على ذلك ـ أن الوطنية هي ارتباط الفرد بقطعة من الأرض ، تعرف باسم الوطن ، والقومية هي ارتباط الفرد بجماعة من البشر ، تعرف باسم الأمة » .

ولكن ما هي عوامل القومية ؟

يختلف الباحثون في تحديد هذه العوامل لانتماءاتهم الفكرية المختلفة ، لكنها بصورة عامة تتراوح بين اللغة ، التاريخ ، التكوين النفسي ـ الثقافي ، وحدة اقتصادية ، أرض مشتركة ، المشيئة ، الأصل، الدين . مصدر الاختلاف هنا في عدد هذه العوامل وما هو أساسي منها ، وقد اختارت النظرية الماركسية العوامل الخمسة الأولى ، في حين أن ساطع الحصري اختار عاملين اعتبرهما العاملين الأساسيين ، وما عداهما لا يؤثر في القومية بصورة مباشرة ، وإنما يؤثر في هذين العاملين ، وبالضرورة يؤثر في البنية العامة للقومية ، فقد

يحكم هذا التأثير على أمة معينة بأن تفقد قوميتها وتصبح لها قومية جديدة تختلف عن سابقتها .

هذان العاملان هما اللغة المشتركة والتاريخ المشترك ، ويركز الحصرى على اللغة بصفة أساسية بحيث يبدو أن ثلاثة أرباع نظريته فى القومية تعتمد على اللغة ، ويصبح التاريخ تابعًا لا ندًا لها .

يقول ساطع الحصرى :

« إن اللغة والتاريخ هما العاملان الأصليان اللذان يؤثران أشد التأثير فى تكوين القوميات ، والأمة التى تنسى تاريخها ، تكون قد فقدت شعورها ، وأصبحت فى حالة السبات ، وإن لم تفقد الحياة ، وتستطيع هذه الأمة أن تستعيد وعيها وشعورها بالعودة إلى تاريخها القومى وبالاهتمام به اهتمامًا فعليًا . لكنها إذا ما فقدت لغتها ، تكون عندئذ قد فقدت الحياة ، ودخلت فى عداد الأموات ، فلا يبقى سبيل إلى عودتها إلى الحياة ، فضلاً عن استعادتها الوعى والشعور » .

ينبع اهتمام الحصرى باللغة من اهتمامه بالعوامل الناشئة عن الاجتماع البشرى ، باعتبار اللغة محور العوامل النفسية والاجتماعية ومعبراً عنها ، فالإنسان يتمايز عن الحيوان بالنطق ، ويتمايز الإنسان عن الإنسان باللغة ، التى هى وليدة الاجتماع البشرى ، وعامل من عوامله أيضًا ، أى إن هناك علاقةً جدليةً بين اللغة والمجتمع ، إنها تؤثر

على فكر الفرد وعواطفه معًا ، وتخلق نوعًا من التوحد بينه وبين مجتمعه .

وإذا كانت اللغة هى « **روح الأمة وحياتها** » ، فإن التاريخ هو «**شعور الأمة وذاكرتها**» وليس المقصود بالوحدة التاريخية لمجموع الأمة، هو الوحدة التامة فى جميع أدوار التاريخ ، وإنما الوحدة النسبية والغالبة التى تتجلى فى أهم صفحات التاريخ ، وهذا يؤدى بالضرورة إلى نسيان قسم من وقائع التاريخ التى لا تشترك فيها أجزاء الأمة جميعها .

أما من العوامل الأخرى التى تؤثر فى هذين العاملين ومن ثم تؤثر فى وجود الأمة ذاتها ، فأهمها فى نظر ساطع الحصرى هو الدين ، والأصل ثم الاقتصاد . فالدين أصيل فى الطبيعة البشرية ، بل إنه يشغل الجانب الأكبر فى نفس الإنسان ، لكن الأديان الرئيسية ـ فى حقيقتها ـ أديان عالمية ، أى إنها لا تقتصر على شعب بذاته ، وبالتالى لم تستطع أن توجد نوعًا من التوحد فى الشخصية أو القومية تجمع عدداً من الشعوب المختلفة فى إطار واحد .

وإذا كان الجنس لدى عدد من المفكرين القوميين ـ خاصةً الألمان فى العهد النازى ـ عاملاً أساسيًا فى تكوين القومية فإن ساطع الحصرى يرفضه ، لأنه لا يوجد شعب ينحدر من أصل واحد ، وإنما هناك أصول جنسية مختلفة أسهمت فى تكوين الأمة الواحدة ، فالأمة الفرنسية ـ وهى الأسبق فى تكوين وحدة سياسية قومية ـ لا تنحدر من

أصل واحد ، وما اعتزاز الفرنسيين بأسلافهم القدماء المنحدرين من أصول مختلفة إلا اعتزاز معنوى لا مادى .

- 3 -

ومادام هذان العاملان مرفوضين .. فما موقف الحصرى من العوامل الأخرى ؟ إن هذا يتضح من موقفه من نظرية المشيئة التى راجت عند المفكرين الفرنسيين ، وخاصةً عند إرنست رينان .

ونظرية المشيئة هنا تتصل بعوامل الأرض ـ الجغرافيا ، والاقتصاد ، اتصالاً وثيقًا ، وقد دعا إليها رينان فى مواجهة نظرية اللغة ـ العرق الألمانية التى كان فيخته نبيها الأول ، وذلك بسبب المناطق المتنازع عليها بين ألمانيا وفرنسا ، فقد كان أهل هذه المناطق (الألزاس واللورين) يتكلمون الألمانية لكنهم كانوا فرنسيين بإرادتهم ، لا بإرادة مفروضة عليهم من حكومتهم .. وكانت أكبر حجة لأنصار المشيئة إنها من أبرز مقومات الإنسان باعتبار أنه مفكر ، ولديه القدرة على الاختيار .

ولكن الحصرى يرفض هذا المنطق ، لأن المشيئة تؤثر فيها إلى حد كبير أساليب الدعاية والعادة المتبعة ، فإن أهالى الجنوب بالولايات المتحدة لم يستطيعوا أن يكونوا دولة رغم إرادتهم ، وإذا كان أهالى سويسرا أو بلجيكا قد كونوا دولة بإرداتهم ، إلا أن هذا لم يكن بدافع قومى ، كما إنهم لم يقيموا قومية بعد اتحادهم .

إن الأرض ـ الجغرافيا تميز الدولة.. لكنها لا تميز بالضرورة الأمة.

ومن خلال رفض الحصرى لنظرية المشيئة رفض أيضًا الاقتصاد كعامل لتكوين الأمة ، إنه لا يرفض العوامل الاقتصادية كعوامل مؤثرة فى حياة المجتمعات ، لكنه لا يعتبرها مكونًا أساسيًا للقومية .

ويتضح هذا من رده على نظرية ستالين فى القومية ، فإن ستالين يقيم أربعة عوامل للقومية ، وهى اللغة ، أرض مشتركة ، وحدة اقتصادية ، تكوين نفسى ـ ثقافى . وقد رفض ستالين ما أضافه غيره من الماركسيين من ضرورة وجود الدولة كعامل معادل إلى جانب الوحدة الاقتصادية ، وكان رفضه هذا مبنيًا على أساس أن الإيرلنديين والأوكرانيين ، كلاهما قومية ، رغمًا عن عدم توافر وجود الدولة عندهم قبل الحرب العالمية الأولى .

ويرى ساطع الحصرى بأننا لو رفضنا وجود الدولة لرفضنا أيضًا وجود الوحدة الاقتصادية باعتبار أن الدولة يرتبط وجودها بوجود هذه الوحدة ، فضلاً عن أن تجزؤ الأمة سياسيًا (بولندا) يؤدى إلى خضوعها مجزأةً لأنظمة الأمم الأخرى سياسيًا واقتصاديًا .

« إن الحياة الاقتصادية المشتركة لا تتيسر إلا بعد تكوين الدولة القومية ، فيجب أن تعتبر من نتائج تكوين الأمة واستقلالها لا من عوامل تكوينها » .

ولكن إذا كـــان هناك من البـــاحـــثين من يربطون بين التطور الاقتصادى الحادث فى المجتمع الأوربى فى القرن التاسع عشر وقبله ، وبين ظهور الفكرة القومية ، فإن الحصرى يرد على هذا (التزامن) بأن من الحركات القومية ما جاء نتيجة وعى لغوى لدى القوميات المقهورة ضد رأسمالية الدول الأخرى المسيطرة ، وأن الوحدة السياسية فى ألمانيا سبقتها وحدة أسواق (التسولفراين) ، وسبق هذا تنظير فكرى فى أعقاب هزيمة يينا عند فيخته وغيره .

- 4 -

تلك كانت عوامل القومية عند مفكرنا الكبير .. ولكن هناك سؤالاً يطرحه أمامنا البحث .. إذا كانت النزعة القومية هى بمثابة حب الطفل لأمه . حب منزه عن الإرادة والاقتصاد وعن مصالح الناس ، فلماذا لم يظهر هذا الحب بوضوح قبل القرن التاسع عشر ؟

« وإذا كانت كلمة المؤرخين قد اتفقت على تسمية القرن التاسع عشر فى أوربا بـ « عصر القوميات » فإنهم لم يقولوا ذلك ، لاعتقادهم بأن القوميات تكونت خلال ذلك العصر ، بل قالوا ذلك لعلمهم بأن النزعات القومية اشتدت خلال ذلك العصر ، وأخذت تتغلب على سائر العوامل فى أمر تكوين الدولة وتحديد حدودها ، فصارت ـ لذلك ـ سبباً لتكوين « الدول القومية » .

الجديد الحادث فى القرن التاسع عشر هو نشوء الدول القومية أما قبل هذا فى القرون الوسطى فقد كانت أوروبا تحكمها أسر قديمة تعتمد فى حكما على الحق الإلهى ، ويساندها رجال الدين فى تأكيد هذا الحق ، وغالبًا ما كانت الأسرة الواحدة تحكم أكثر من قومية أى إنها لا تتكلم بلغتها ولديها لغة أخرى هى لغة « السوط » فى حين كانت اللاتينية هى لغة الكنيسة .. ولم تكن ثمة حدود واضحة بين مفهوم الوطنية ، ومفهوم الولاء . ويلاحظ أن الممالك ـ فى تلك العصور ـ كانت تتسع وتتقلص ، حسب أغراض الملوك ، وما يقيمونه من حروب أو يعقدونه من مصاهرات .

وفى مطالع العصور الحديثة بدأت الشعوب فى الثورة على النظام القديم ، واتجهت ثورتها ضد الملك ـ الكنيسة ، حتى أتى عصر التنوير ليسحب الأرض تحت هذه الطبقة .. وانتهى الأمر بتقرير أن الأمة هى مصدر السلطات . وتبع هذا إنشاء عدد من الهيئات كالمجالس النيابية والمدارس العلمانية والمحاكم المدنية ، وظهر نظام التجنيد الإجبارى .. وهذا كله اقتضى تعليم اللغة القومية ، وهى أهم عناصر القومية .

ولكن مادامت الأمة هى مصدر السلطات ، فما هى الأمة على وجه التحديد ؟ .. من هنا ظهرت الفكرة القومية ولا نقول القومية ذاتها .

ويرتبط ميلاد النزعة القومية فى القرن التاسع عشر بميلاد نزعة جديدة حدثت بعد تأسيس الدولة القومية .. هذه النزعة أو الظاهرة هى الاستعمار .

إن رفض الحصرى الربط بين نشوء القومية (المثالية) والعوامل الاقتصادية (المادية) أدى به بالتبعية إلى رفض الربط بين نشوء الدول القومية أيضًا والاستعمار ، ويستشهد على هذا بأن الإستعمار قديم وموجود قبل الفكرة القومية (إنجلترا ـ فرنسا) أو بعدها (إيطاليا) . وأن الاستعمار نتيجة للعوامل الاقتصادية والتقدم الآلى المادى الذى هو كيان منفصل عن القومية ككيان مثالى .

إن ما حدث هو مجرد تزامن .

- 5 -

هذا هو هيكل النظرية العامة عند ساطع الحصرى . فماذا كان موقفه من القومية العربية ؟ أو بتعبير آخر النظرية القومية فى التطبيق ؟

هل العرب أمة ؟ ..

نعم .. إنهم يشتركون فى لغة واحدة ، هى بالنسبة للقومية العربية « **محورها وعمودها الفقرى** » ، من هذه اللغة وجد تكوين نفسى واحد إنعكس فى ثقافة عربية واحدة . كما إنهم يشتركون فى تاريخ واحد ، صحيح أنه توجد فترات لم يكن للعرب خلالها دولة واحدة

تحكمهم ، لكن هذه الفترات قليلة ، لم تسمح بأن يصيب اللغة العربية ما أصاب اللاتينية أو الجرمانية أو السلافية .

ومن واقع تاريخ عربى واحد تحكمه لغة عربية واحدة يأتى ساطع الحصرى بخريطة زمنية توضح هذه الوحدة ، ويؤكد فى رده على الدكتور حسين مؤنس عاملى الترابط والإنسجام فى تاريخ العرب .

إن ساطع الحصرى يؤيد الوحدة العربية ويرفض أى كيان آخر ينتمى إليه العرب لعدم توافر عاملى اللغة والتاريخ .. من أجل هذا يرد على دعوة طه حسين المعروفة بأن مستقبل الثقافة فى مصر ليس فى اتجاهها إلى البحر المتوسط ، بل إنه يرفض تعبير ـ « **حضارة البحر المتوسط** » ، لأنه إذا جاز لنا استخدام هذا التعبير قبل قرون ، فلا يجوز لنا أن نستخدمه الآن ، لأنه عمليًا غير موجود ، بعد أن اتسعت تلك الحضارة ، وتطورت إلى حضارة غربية (أوربية) فأوقيانوسية ، فعالمية ، يشترك فيها كل البشر .

ومثلما رفض ساطع الحصرى هذا التعبير ، فقد رفض أيضًا تعبير «**الشرق والشرقيين**» لأنه تعبير نسبى غامض غير محدد .. قديم .

وفى مجال اللغة العربية وتاريخ الأمة العربية ، الذى هو إلى حد كبير تاريخ اللغة العربية ، وانتشارها ، يدافع ساطع الحصرى عن الحضارة العربية ، والزعم القائل أن العرب ليسوا سوى نقلة لحضارة سبقتهم ، بأنه لو جاز تصديق هذا الزعم ، فيكفى العرب فخراً أنهم نقلوا عن حضارة مجيدة ميتة لا عن حضارة حية يعاصرونها .

وهو يبرر هجوم ابن خلدون على العرب والعروبة بأنه يقصد البدو والبداوة ، وقليلاً ما يستخدم تعبير أعرابى وأعراب .. إنه أيضاً يجعل ابن خلدون يتفوق على ڤيكو ويسبقه ، كما إنه يمتاز على مونتسكيو من عدة جوانب .. هذا فضلاً عن أنه مؤسس علم الاجتماع وفلسفة التاريخ .

ولكن ما هى أسباب تخلف العرب فى الوعى القومى ؟ .. أو بعبارة أخرى لماذا تأخر ظهور الفكرة القومية عند العرب ؟ .

إن هذا يرجع إلى ثلاثة عوامل . أولها السلطة المعنوية لدولة الخلافة الإسلامية ، وثانيهما التأثر بالثقافتين الإنجليزية والفرنسية حيث إن الأوربيين أنكروا وجود قوميات خارج بلادهم . على أن العامل الأهم هو « **الأوضاع السياسية التى خلفتها المطامع الاستعمارية فى البلاد العربية والنزعات الإقليمية التى تولدت عن تلك الأوضاع** » .

كيف كان ذلك ؟

يقول إن الدول العربية بحدودها الحالية لم تكن موجودة قبل الاستعمار ، وكان التقسيم الإدارى قائماً على أساس إيالات أو سناجق أو متصرفيات ، متساوية فى أوضاعها الداخلية وفى تبعيتها للسلطنة العثمانية ، وإن ما حدث بعد الحرب العالمية الأولى ، ما هو إلا تجميع أجزاء معينة منها فى دول ، لم يكن هذا التجميع على أساس تقارب

الأوضاع بين هذه الأجزاء ، بقدر ما كانت المصلحة الاقتصادية للدولة المنتدبة تريد (الموصل ــ البترول ــ إنجلترا) .

واضطر الحصرى من أجل إثبات هذه النظرية إلى أن يخوض معارك فكرية مع غير واحد من المفكرين العرب فى مصر ولبنان ، فقد كان جرجى زيدان يؤكد أن النهضة التى حدثت فى لبنان إنما حدثت بعد عام ١٨٦٠ (وأحداثه الدامية وما ترتب عليها من وضع خاص) . ويرد عليه ساطع الحصرى بأن نهوض لبنان يرجع إلى ظروف محلية سبقت هذا التاريخ ، وظروف اقتصادية عالمية لا صلة لها بأحداث عام ١٨٦٠ ، هذه الظروف أتت بعد هذا العام .

وخاض ساطع الحصرى معركته المشهورة مع القوميين السوريين ومع أنطون سعادة بالذات ، فقد دعا سعادة إلى قومية سورية تضم سوريا الجغرافية وقبرص (**مشروع سوريا الكبرى**) ثم لم يلبث أن توسع بهذا المفهوم بأن ضم إليه العراق (**مشروع الهلال الخصيب**) . وكان سعادة ينطلق فكريًا من واقع الوراثة الطبيعية ، وليس الوراثة الاجتماعية. فخصص له الحصرى نصف كتابه عن «العروبة بين دعاتها ومعارضيها» لنقض آرائه ، وأوضح أن الوراثة الاجتماعية وحدها هى التى تميز الإنسان عن الحيوان ، وما قصة الحضارة إلا محاولة الإنسان الدائبة للسيطرة على تحديات الطبيعة وإخضاعها له ، فضلاً عن أن التنوع فى الطبيعة ــ الجغرافيا قد يكون عامل وحدة أكثر مما يكون عامل انفصال (فرنسا) .

ومثلما خاض ساطع الحصرى معارك مع الانفصاليين فإنه خاض أيضًا معارك مع القائلين بالتفسير الاقتصادى للقومية العربية ، فهو يؤكد أن نظام الاقطاع الذى كان قائمًا فى الشرق العربى إبان العهد العثمانى (التيمارات ـ الزعامتات) يختلف عن النظام الاقطاعى الذى كان قائمًا فى أوروبا فى العصور الوسطى ، لأن الإقطاعية فى الشرق العربى لم تكن ملكًا ، وإنما هى منحة محدودة بحجم زمنى معين . كما إنه حين نشأت النزعة القومية شاركت فيها الجماهير كلها بغض النظر عن انتماءاتها الطبقية .

ولكن ما هو وسائل تحقيق الوحدة العربية ؟

التوعية القومية ـ تأييد مشروعات الوحدة ـ مناهضة الإقليمية .

إن ساطع الحصرى يجعل كل شىء ـ عدا الوحدة العربية ـ أمراً ثانوياً ، فهو يقول :

« سمعت بعض الشبان يتساءلون : كيف خسر العرب معركة فلسطين ضد إسرائيل ، مع أنهم كانوا سبع دول ؟ ولكنى أجبت على هذا السؤال : لا يجوز أن يقال إن العرب خسروا معركة فلسطين مع أنهم كانوا سبع دول ، بل يجب أن يقال إن العرب خسروا معركة فلسطين ، لأنهم كانوا سبع دول » .

وعندما تحولت الوحدة العربية لدى ساطع الحصرى إلى سلوك ، فإنه توفر علـى دراسة التاريخ العربى ، وصنف عـدة كتب فيه ، بينها « **البلاد العربية والدولة العثمانية** » و « **يوم ميسلون** » ، ودعا غيـره إلى إعادة كتابة هذا التاريخ بعقلية غربية ونزعة قومية . وإذا كانت التربية هى محور الوظائف الرسمية التى وليها خلال سنوات طويلة ، فإنه لم يترفع عن تأليف كتب فى تعليم « الألفباء » وعمل على تعريب الكتب المدرسية فى الأقطار العربية التى ولى فيها مناصب قيادية ، ودخل فى معارك مع إسماعيل القبانى - وغيره من أنصار المدرسة القديمة - من أجل توحيد المناهج الدراسية بين البلاد العربية .

فى سنة ١٩٥٨ أعلن قيام الجمهورية العربية المتحدة .. وفى سنة ١٩٦١ حدث الانفصال ... كانت الوحدة تصديقًا لآراء ساطع الحصرى، لكنه لم يحدث العكس بعد ثلاث سنوات .

إن النظرية القومية ما تزال كما هى فى كتابه « **الإقليمية ... جذورها وبذورها** » الذى بدأ كتابته فى مطلع عام ١٩٦٢ ... لكن هذه النظرية اكتسبت بعداً جديداً ما يزال فى صورته الأولية لم تتهيأ له الفرصة لكى يعمق بعد .. هذا البعد هو المادية أو الاقتصاد الذى أبعده الحصرى عن أمته .

إن الحصرى يرجع جزءاً كبيراً من مسئولية ما حدث إلى اهتزاز مصالح الرأسماليين بعد صدور القوانين الاشتراكية .

- 6 -

إن معظم النقد (العلمى) الذى يوجه إلى فكر ساطع الحصرى ، مؤداه إنه فكر مثالى . يهمل شأن المادة ، ويقتصر على العوامل النفسية والمعنوية وحدها ، هذه العوامل التى تجد مجالها فى اللغة والتاريخ . فالقومية لا تنشأ فى فراغ ، وإنما هى محصلة ظروف تاريخية ، نماها الواقع المعاش ، هذا النمو التاريخى للقومية ـ ولا نقول الفكرة القومية ـ جاء إلى حد كبير تعبيراً عن التطور الناشىء فى عمليات الإنتاج ، بحيث إنه عندما جاء القرن التاسع عشر كانت أوربا حبلى بالقومية ، ولا ينقصها غير الحروب النابليونية لتعلن هذا الميلاد الجديد .

صحيح أن الإنسان حيوان مفكر ، لكنه أيضاً حيوان صانع لأدوات الإنتاج ، هذه الأدوات تؤثر ـ من ثم ـ على فكره .

إن تاريخ أوربا لم يكن فقط تاريخ حروب يقيمها الملوك ، أو معاهدات يعقدونها ، ولكنه أيضًا تاريخ طبقات اجتماعية تتداول السلطة، والملوك والنبلاء قد لا ينتمون فعلاً إلى القومية التى يحكمونها، لكنهم أيضًا طبقة ، إلى جانب أنهم حكام ، هم يسعون لمصلحتهم الطبقية إلى جانب أنهم يسعون إلى مصلحتهم السياسية ، والثورة الفرنسية ليست ثورةً ضد الاستبداد فحسب ، وإنما هى ثورة ضد حواجز الطبقات وحواجز الاقتصاد .

شيء قريب من هذا حدث فى المنطقة العربية وإن تأخر عنه سنوات بسبب علاقات الإنتاج المتخلفة .

كما إنه من الخطأ الفصل بين النزعات القومية (البرجوازية) والاستعمار .. إن من المفكرين القوميين من كانوا أكثر استعماريةً من الساسة الفكتوريين أنفسهم .

إن الحصرى يعترف بأن العوامل الاقتصادية لعبت دوراً فى حدوث الانفصال، ذلك لأن الاقتصاد عامل من عوامل القومية .. والقومية العربية ، ولأن الوحدة مع الاشتراكية سوف توفر الرفاهية لمجموع الأمة العربية .

ورفض الحصرى لعامل الأرض ــ الجغرافيا ، ليس له مبرر عملى ، فالبلاد العربية بيئة متوسطية ، ولا توجد أرضية جغرافية تمنع الوحدة ، ولكن مادام الحصرى قد صعد القضية إلى مستوى فكرى ، فإن رفضه لهذا العامل يتناقض مع تعريفه للقومية بأنها حب جماعة من البشر تعيش على قطعة من الأرض ، وتبريره للأمثلة الاستثنائية (الولايات المتحدة ــ أمريكا اللاتينية ــ سويسرا ــ بلجيكا ــ يوغوسلافيا) غير مقنع تماما .

ولكن يبدو أن الحصرى تنبه ــ أحياناً ــ إلى هذا العامل فى ردوده على خصومه الإقليميين إذ يقول : « **إن فكرة الوحدة العربية تستمد**

نشاطها من حيـاة اللغة العربية وتاريخ الأمة العربية واتصال البلاد العربية » . وفى مناسـبـة أخـرى يدافع عن الوحـدة التى تمت سنة ١٩٥٨ ، ويقـول أن البـحر المتـوسط ليس عـامل انفـصـال بين إقليـمى الجمهورية الجديدة .

وإذا كان الحصرى فى دفاعه عن العروبة قد تعرض للهجوم من الرجعيين ودعاة التجزئة والعملاء ، فإنه فى إنكاره للعوامل الأخرى غير اللغة والتاريخ قد تعرض للهجوم من اليساريين ، ولعل أهم ما كتبه اليساريون فى ردودهم على ساطع الحصرى وأحسنها هو كتاب « **نقد الفكر القـومى ... ساطع الحـصـرى** » للمـاركـسى السـورى إليـاس مرقص، وهو الكتاب الذى صدر فى لبنان فى عام ١٩٦٦ .

إن أفكار ساطع الحصرى خدمت مرحلةً من تاريخنا ، ربما لم تعد تلك الأفكار كلها مناسبةً لظروفنا الموضوعية التى نعيشها اليوم إلا أن هذا لا يمنع من أن بعض تلك الأفكار ما يزال حياً مفيداً يعيش بيننا ، وكل هذه الأفكار كانت متقدمةً بالنسبة لجيل لنا مضى .

إن مجىء ساطع الحصرى كان ضرورياً من أجل تعقيل الحركة القومية وتجريدها فى الشعارات الرومانسية من ناحية ، وصد التيارات ضد ـ القومية والاستعمارية من ناحية أخرى .

إنه فى كـتـابه عن ابن خلدون يرى أنه من الظلم جـعل مـعـيـار التـخطئـة والصـواب فى الحكم على ابن خلدون عـصـرنا نحن ، لأن

عصرنا قد يكون قد جاوزه بالفعل ، ولكن علينا أن نُقَوِّم الرجل من خلال عصره ، ندرس أفكاره من خلال أفكار معاصريه لا معاصرينا نحن .. وأعتقد إن هذا ينطبق على الحصرى .

لقد ولد ساطع الحصرى فى سنة ١٨٨٠ وكانت هناك ملكة اسمها ڤكتوريا تحكم العالم ... ومات والعالم يتحدث عن غزو القمر .

إن لنا على فكر ساطع الحصرى نقدات ... ولكن هذا لا يمنع من أن نحبه مفكراً .. إنساناً .



أربعة كتب عن الشخصية المصرية

سنة ١٨٠٠ ... وقف الشعب المصرى عند مفرق الطرق ، لا يعرف أين يتوجه ... لقد صدمه الغزو الحضارى للقرن التاسع عشر ، وهو بعد لم يتعد عتبة القرن الخامس عشر . كانت الحملة الفرنسية حدثًا هائلاً فى تاريخ مصر ، وتاريخ الشرق العربى كله ... بعدها فكر المصريون ، من نحن ، ما هى القومية التى ننتمى إليها ، ما هو التكوين النفسى الخاص بنا ... أين هى الشخصية المصرية ؟؟

وكان البحث عن الذات المصرية خطًا عامًا يصل بين مفكرينا ، ابتداءً **بعبد الرحمن الجبرتى** ، وانتهاءً **بجمال حمدان** ..

وسوف نقصر بحثنا هذا لدراسة هذه الشخصية عند أربعة من مفكرينا الكبار المعاصرين ، من خلال كتبهم ؛ هم **العقاد** ، **حسين مؤنس** ، **شفيق غربال** ، **حسين فوزى** . ثم نختص **جمال حمدان** بدراسة مستقلة .

وإذا كان هؤلاء الخمسة الكبار يتفقون فى أنهم كتبوا عن الشخصية المصرية ـ وإن اختلفت زوايا الرؤيا وحجم ما كتبوه ـ **فهم** يتفقون أيضًا فى أنهم كتاب موسوعيون ، إما بحجم ما قرأوه ، أو بحجم ما كتبوه ، أو إنهم موسوعيون ، بحجم ما قرأوه وما كتبوه .

---

* مقال نشر بمجلة الفكر المعاصر العدد ٥٠ . أبريل ١٩٦٩ .

- 1 -

ويستمد كتاب « **سعد زغلول ... سيرة وتحية** » للعقاد أهميته من أنه محاولة لإبراز الشخصية المصرية من خلال سعد زغلول ؛ كما إنه يستمد أهميته أيضًا من الفصلين الأولين للكتاب ؛ حين يتحدث المؤلف عن طبيعة الأمة المصرية ، فى أوهام الآخرين ، وعن هذه الطبيعة فى حقيقتها .

والجدير بالذكر هنا إنه إذا كانت سيرة (أو عبقرية) سعد زغلول تختلف عن عبقريات العقاد الأخرى بأنها أقرب إلى أدب « **الترجمة التاريخية** » منها إلى أدب « **الصور النفسية** » ـ كما فى « **العبقريات الإسلامية** » ـ فإن اتجاه العقاد فى التحليل النفسى يبدو بوضوح فى هذين الفصلين .

والطبيعة المصرية ـ عند العقاد ـ تبدو طبيعة استاتيكية جامدة ، لا تتعرض لعوامل النمو ، إن لم يكن التغيير ، فهى واحدة منذ القدم . وتفسير هذا يرجع من ناحية إلى ظروف المرحلة التى عاشها العقاد ـ كابن لثورة ١٩١٩ ـ وظروف المرحلة التى ظهر فيها الكتاب ـ إنحسار المد الوطنى ويأس الكثيرين من إمكانية التغيير ـ إلا أن هذه المحاولة تكتسب أهميتها فى كونها محاولةً عقلانيةً لا وجدانية فى تفسير الشخصية المصرية .

ويتلخص موقف العقاد فى أنه دفاع عن (الأمة المصرية) ازاء النظريات المختلفة لتفسير طبيعة هذه (الأمة) ، وأكبر هذه النظريات أنها « أمة لا تحكم نفسها ، ولا تبالى غارة الأجنبى عليها » ... ويرد العقاد على هذا الاتهام ، بأن لمصر تاريخًا طويلاً متصلاً بشعوب أخرى كثيرة ؛ من هذه الشعوب ، من كان ينفس عليها مكانتها ، واعتزاز أبنائها بها ، ثم استمرار هذه النظرة عند المستعمرين الأجانب فى عصرنا ، وامتدادها عند دعاة العنصرية من آرية وسامية ... ولا ننسى ما تواتر ـ عند العامة ـ من خلط بين الفراعنة (فراعنة الكتب المقدس) وبين المصريين القدماء ، منطلقين هنا من شعورهم الدينى فحسب ... وأبيات المتنبى المشهورة ؛ وهى تعبر عن حالة ذاتية ، ولا تستحق التعميم .

على أن محور ما يدور حوله رأى العقاد ، ينبع من أن مصر **أمة زراعة أولاً** ، وذات تاريخ طويل ثانيًا ... ومن حيث إنها أمة زراعة ، فهى أمة حضارة ؛ لا تخرج إلى حرب إلا إذا دعاها داعى الأمن إلى ذلك ، ومن حيث إنها أمة زراعة ، فهى أمة عقائد ، لا يعنيها صلاح الحاكم ، قدر ما يعنيها صلاح الأرض والسماء ، لا تثور إلا إذ جاوز الحاكم بها حد الطاقة ... لكنها إذا ثارت « **فهناك يستعصى قيادها ، كأشد ما يستعصى قياد أمة ، وهناك تصمد للحرب ، كما يصمد لها المقاتل المجبول عليها .. وكان للعقيدة والموروثات فى معظم هذه الثورات دخل أظهر من دخل المصلحة والمرافق القومية أو الفردية** » .

وهذا كله ينعكس على نفسية المصرى ؛ فنحن نلاحظ ارتباطه بحياة الأسرة ، أو من الممكن أن نقول إن الحياة الأسرية هى « مفتاح الشخصية المصرية » ، إذا شئنا أن نستعير هذا التعبير الذى ردده العقاد فى عبقرياته التى أتت بعد ، أو أن الأسرة هى محور حياة المصرى ومجال اهتمامه ، إنها « ملجأ خفيض ومهرب أمين من القسوة والمظالم » ... أداه هذا إلى أن لا يهتم بما يجرى خارج مجتمعه الصغير ، لا يثور إلا إذا أحس أن كيانه الأسرى مهدد من خارج هذا الكيان ، فالمصرى إذن اجتماعى من ناحية الأسرة ، غير اجتماعى من ناحية الحكومة ، وعلاقته بهذه الأخيرة « علاقة عداوة مريبة أو مهادنة محتملة ، لم تبلغ أن تكون علاقة ود يحرص عليه ، أو ضماناً يحميه إلا فى الندرة التى لا يقاس عليها » .

لكل هذا ... فإن المصرى محافظ بطبعه ، لكنه ثورى من حيث إنه محافظ ، لا يثور إلا إذا وجد أن هناك من يريد أن يغير حالاً عاش عليها ، وهو أيضًا عملى النزعة ، لأن حياته الزراعية وارتباطه الأسرى يحدان من نزعة التخيل عنده ، حتى إن المصرى حين خلق عالمه السماوى ، جعله على غرار عالمه الأرضى ، ولموقفه العقيدى ، لم نشهد فى مصر فتناً دينية ولا عنصريةً كالتى شهدناها فى بلاد أخرى حول مصر ، وقد علمه ارتباطه بالأرض والزراعة أن يصبر ، والصبر هنا

ليس سلبيةً تؤخذ عليه ، إنما هو عملى إيجابى ... وبقدر ما كانت النكتة تعبيراً عن الشعب ، وما يجيش فى ضميره ، فى ظروف معينة ، كان النسك تعبيراً عنه فى ظروف أخرى .

- 2 -

وإذا كان ما كتبه العقاد ـ بما فيه من دوجماطية واستاتيكية ـ يعبر عن رؤيا جيل من المثقفين المصريين ، قبل عام ١٩٥٢ ، فإن الدكتور **حسين مؤنس** فى كتابه « **مصر ورسالتها** » يشكل أحد أبعاد الصورة الجديدة ، بعد أن طرأت أحداث سياسية ، جعلت المصرى يعيد النظر فى شخصية وطنه ... والبعد الجديد الذى أتى به حسين مؤنس ـ يوضحه أو يعمقه ـ هو البعد الحضارى ، أو إن لمصر حدوداً حضارية بمثل ما لها من حدود سياسية ... هذه الحدود تجاوزها إلى إفريقيا وآسيا والبحر الأبيض المتوسط .

يقول المؤلف :

« وهذه القوى الثلاث التى تنازعت تاريخ مصر ، هى الأبعاد الثلاثة لهذا التاريخ وهى فى مجموعها ، تعطى هذا التاريخ هيأته وحجمه وعمقه أيضًا ، ولا بد لمصر إذا أرادت أن يستقيم ميزان حياتها، من أن توازن بين هذه القوى ، فلا تغلب واحدة منها واحدة، ولا تصرفها عن واحدة منها واحدة » .

فى هذا الإطار العام قامت مصر بدورها الحضارى ، ففى إفريقيا كانت حدودها الحضارية تمتد إلى تونس ، وثبت وجود صلات لها مع غربى القارة ، وهى التى نشرت المسيحية ثم الإسلام فى السودان الشمالى والحبشة ، وفتحها للسودان لم يكن فتحًا سياسيًا وإنما كان فتحًا حضاريًا ، لم يكن من أجل نفع مادى ، لأن إمبراطوريتها كانت دائمًا فى آسيا ، ولا أدل على إنسانية هـذا الدور من أن البلاد القريبة منها فى القارة كانت أسبق عهداً بالاستقلال ، وكانت البلاد البعيدة عنها فى القارة أحدثها عهداً بالاستقلال .

أما عن آسيا ، فصلات الدم قوية ، وعبادة آتون دليل على هذه الصلات ، ومصر هى التى تزعمت العالم الإسلامى ، بعد سقوط دولة الخلافة فى المشرق ، ودفعت عن الشام الأخطار التى تهددته خلال العصور ، بل إنها والشام كانا إقليمى دولة واحدة معظم تلك العصور ، فضلاً عن امتداد سلطانها السياسى ، ومن ثم الحضارى ، إلى أقطار أخرى فى آسيا غير الشام ... فى إطار هذه الوحدة حفظت مصر الحضارة الإسلامية من الزوال ، رغمًا عن الضربات العديدة التى وجهت إليها .

على أن أهم الأبعاد الحضارية لمصر هو البحر الأبيض المتوسط ... قامت فيه مصر بدورها التاريخى ، حتى إنه من الممكن أن نقول إن تاريخ مصر هو تاريخ هذا البحر ، وحضارتها قبل الفتح العربى لم تكن شرقيةً

خالصةً ، كما إن اتجاهها مع العصر الحديث ليس شرقيًا خالصًا أيضًا ... من خلال صلاتها بالبحر استطاعت أن تسهم فى إنشاء الحضارة الحديثة ، وأتى اسهامها هذا برافدين عظيمين ، رافد مصرى قديم ، أثر فى الرافد اليونانى للحضارة الحديثة ورافد مصرى إسلامى ، أثر فى الرافد الإسلامى نفسه لتلك الحضارة .

« إن ما نسميه اليوم بحضارة الغرب ، إن هو إلا الحضارة المصرية القديمة متطورة فى اتجاه واحد مستقيم » .

إن من واجبنا الاهتمام بهذه الحدود الثلاثة ، فعندما أغفلنا إفريقيا استمرت المسيحية فى النوبة حتى القرن الرابع عشر ، وسقطت الأندلس، وعانى المغرب من أعمال القرصنة ، وهجمات الإسبان وفرسان مالطة . وعندما أغفلنا آسيا فى مرحلة جاء الصليبيون ، وفى مرحلة أخرى جاء العثمانيون . وعندما أغفلنا البحر الأبيض المتوسط ، لم نستطع أن نصيب شيئًا من الحضارة الحديثة التى نمت فى أوربا ، إلا فى وقت متأخر ، وجاء هذا بعد أن فرضت أوربا سلطانها السياسى علينا .

إذن ... فرسالة مصر « **نور وسلام** » ، وهى فى جميع مراحل تاريخها لم تنشر الحضارة ، أو تساهم فى نشرها بالقوة ، وإنما كان خير الآخرين هو هدفها .... إذا كانت مصر سباقة فى إنشاء الحضارة ، وسباقةً فى نشرها أيضًا ، فإن عليها متابعة هذا ، بعد أن حصلت على

استقلالها ، ورسالتها هنا « ليست رسالة متابعة أو ملاحقة ، بل رسالة قيادة » .

تلك وجهة نظر حسين مؤنس ، فى جانب منها تأثر بكتاب **«فلسفة الثورة»** ، وفى جانب آخر تأثر بكتاب « **مستقبل الثقافة فى مصر** » ... نتفق معه فى الإطار العام ، أى إن لمصر بعدا حضارياً ، لكننا قد نختلف معه فى تحديد هذا البعد أولا ثم فى تقديمه للبحر المتوسط ثانياً .

- 3 -

بعد حسين مؤنس ، ننتقل إلى مفكر آخر ، أثرى فكرنا المصرى ، لا بما أنتجه من كتب ، ولكن لأنه أنشأ مدرسة التاريخ الحديث فى مصر بين جدران الجامعة ، وجميع أساتذة هذا التاريخ عندنا يدينون له بالفضل الكبير ـ فضل القدوة والريادة ـ وكتابه « **تكوين مصر** » فى أصله عشرة أحاديث أذاعها **محمد شفيق غربال** من دار الإذاعة المصرية باللغة الإنجليزية ، ونقلها بمعاونة **محمد رفعت** إلى العربية ، ونشرت هذه الأحاديث فى عام ١٩٥٧ .

وشفيق غربال تلميذ نجيب من تلاميذ المؤرخ الفيلسوف **أرنولد توينبى** ، على يديه تلقى العلم فى إنجلترا ، وعنه أخذ نظريته الخاصة **«بالتحدى والاستجابة»** ، أو إنه تأثر بهذه النظرية ، مما جعله يركز على

العنصر البشرى فى صنع التاريخ وأحداثه ... فمصر ليست **«هبة النيل»** ـ كما تواتر قديمًا ـ وإنما هى **« هبة المصريين »** . لقد فرضت الطبيعة على الشعب المصرى ـ بعد انحسار الجليد ـ أن يواجه ظروف الجفاف أولاً ، ثم تقلبات النهر ثانيًا ، وكان التغلب على هذا التحدى من شأن **« الصفوة المبدعة »** . فاستطاع المصريون أن يصنعوا حضارةً ، فى حين أن أقوامًا آخرين ، عاشوا قريبًا منهم ، لم يستجيبوا لهذا التحدى ، وكان أن عاشوا على هامش الحضارة ، أو فى مرحلة بدائية منها .

ويمكن فهم التاريخ المصرى كله ، ومن ثم الشخصية المصرية فى إطارها العام ، من خلال منهج أو نظرية يضعها غربال فى هذا الكتاب، هى **« ملازمة الوقائع »** ، مؤداها أن ثمة « نواة » تكونت فى مصر واتخذت حجمها فى مرحلة تاريخية معينة أو على طول التاريخ ... هذه النواة تفاعلت مع الظروف الخارجية الطارئة ، لتبرز الشخصية المصرية ، وكان منشأ هذه النواة نظام اجتماع ثابت يقوم على ضبط النيل ، وإنسانية نمت فى جو مصرى خالص .

لقد كفلت هذه النواة وجود عنصر الاستمرار فى التاريخ المصرى، ولم ينقطع الانسجام فى هذا التاريخ إلا مرةً فى نهاية العصر الفرعونى ، ومرةً أخرى مع الفتح الحضارى الذى حدث فى سنة ١٨٠٠ ، على أن أغلب التغيرات هنا إنما هى اجتماعية وثقافية .

كيف كان ذلك ؟ .

يقول المؤلف : إن المجتمع المصرى نشأ من تجمع وحدات ريفية ، وجدت أنه من الضرورى وجود نظام موحد للرى ، تقوم عليه حكومة مركزية ، أى أن النيل هو الذى خلق هذه الحكومة ، وهو الذى حدد وظيفتها ، حتى أن أعمال أحد سلاطين المماليك أو الولاة العثمانيين ، تكاد لا تختلف عن أعمال أحد الفراعنة ، لم يتغير إلا الأسماء .. ولما كان المصريون يرون أن هذا التكوين أعظم من أن يكون من صنع فرد أو أفراد، فإنه بالتالى من صنع الآلهة ، والملوك البشريون من سلالتهم .

نتيجةً لهذا ... انقسم المجتمع إلى طبقتين متميزتين ، ملوك وكهنة يحكمون ، ورعية تعمل فى الإنتاج ... هذا الإنتاج غلبت عليه الرتابة والتكرار ، وفرض على المصرى أن يرتبط بأرضه ، برغم ما قد يحدث له من أحداث ، جعله لا يتطلع إلى حياة أفضل من الحياة التى يعيشها فعلاً ، والحياة الأفضل من نصيب الصفوة الحاكمة ... أداه هذا إلى السلبية والجمود .

ومع مقدم الإسكندر اهتز الإنسجام فى بنية المجتمع المصرى مدى ألف عام ، إذ وفدت حضارة جديدة غريبة عن هذا المجتمع ، هذه الحضارة هى الهيلينية ، التى عاشت حتى الفتح العربى ، وظهرت طبقات جديدة لها ثقافتها الخاصة ، وانتقلت السلطة السياسية فى مرحلة ما من الملك الإله فى مصر إلى الإله القيصر الغائب عن البلاد ، فضلاً عن أن المجتمع اصطنع لنفسه مسيحيةً خاصة وفنًا ولغةً قوميةً ، فصلت بينه وبين حكامه .

ومع هذا فإن الهلينية ، برغم ما أحدثته من اهتزاز فى بنية المجتمع، إلا أنها لم تستطع أن تغير البنيان الأساسى له ، لأن الإغريق عاشوا منعزلين عن المصريين ، ولم يحدثوا تأثيراً كبيراً ، شأنهم فى هذا شأن بنى إسرائيل فى مرحلة سابقة . كما إن المسيحية عندما وفدت إلى مصر ، فإنها وجدت أرضاً ممهدةً أمامها ، بفضل عقيدة الحب والبعث فى الديانة القديمة . ونتيجةً لظلم الحكام ، وحدت المسيحية المجتمع فى قاعاته السفلى ، بل إن مصر طبعت صورتها الخاصة للمسيحية وهى القبطية ، وأنبتت شيئًا جديداً فى هذه الديانة وهو الديرية .

لقد بدأ الانسجام يعود إلى التاريخ المصرى مع المسيحية ، واكتمل هذا الانسجام واتضح مع الإسلام .

أكسب الإسلام مصر طابعها الذى تعيشه اليوم ، وعاد التماسك إلى بنية المجتمع المصرى وتاريخه ، وكفلت الشريعة للعدالة والحق وجوداً ... وأصبح للحضارة الإسلامية فى مصر سمات معينة تعبر عن الاعتدال فى طبيعة هذا البلد ، أى إن مصر مصرت هذه الحضارة ، بل إنها وظفتها فى خدمة الحضارة العالمية ، فضلاً عن أن مصر أسهمت إسهامًا مباشراً فى هذه الحضارة ، وكانت لها اجتهاداتها الخاصة ... ولا أدل على تغلغل هذه الحضارة فى كيان مصر ، من أنها عاشت بها أطول مما عاشت فى أقطار إسلامية أخرى .

لكنها مع هذا لم تفقد شخصيتها .

« إن احتفاظ مصر بذاتيتها ، لم يكن من شأنه النزوع نحو العزلة، أو الانطواء على النفس ، بل كان يتجه نحو الملاءمة بين العناصر الثقافية المستوردة ، وبين بيئة خاصة » .

وفى سنة ١٨٠٠ ... وفدت حضارة جديدة إلى مصر ، اختلف الناس ازاءها ، وتصور البعض أنه سوف يحدث انقطاع فى التاريخ المصرى ... ولكن غربالاً لا يفترض أن علينا أن نختار بين موقفين ، أو أن نجمع بينهما فى موقف ثالث ، وإنما هو يفترض استمرار الموقف الأول مع سرعة تحريكه بما يلائم الظروف الخارجية ، تحقيقاً لنظرية المؤلف الخاصة « يتلازم الوقائع » ... هذه النظرية التى تقول باستمرار التاريخ المصرى وانسجامه فى معظمه ، ومن ثم فى الشخصية المصرية ذاتها .

- 4 -

بعد شفيق غربال ... ننتقل إلى الدكتور حسين فوزى ... ماذا أقول ؟ عالم ، أم أديب ، أم فنان ، إنه هذه الأشياء جميعها ، إن الدكتور **حسين فوزى** نسيج وحده فى الثقافة المصرية .. وكتابه **« سندباد مصرى ... جولات فى رحاب التاريخ »** إضافة جديدة إلى أدب الرحلات .

إذا كان المؤلف قد عودنا قبلاً أن تكون كتبه رحلةً فى المكان ، فإن السندباد هنا يقوم برحلة جديدة ، لكنها رحلة فى الزمان ... رحلة تنتهى بنا إلى « قفطاريم بن قبطيم » مروراً بالمصرلية والفرنساوية وأم

خليل وبنت الزمار والصعيدية ... وغيرها من المرافئ على طريق الوصول ...

إن الكتاب رحلة عذبة شجية ، إنه ليس فقط « شعب نامة » كما يقول المؤلف ، وإنما هو أيضًا سيمفونية تجمع بين إرويكا بيتهوفن ونيبلونجن ڤاجنر والحزينة لشوبرت .

والمؤلف لا يقصد أن يكتب تاريخًا للشعب المصرى ... إنما هو يسجل انفعالاته الخاصة بهذا التاريخ الذى عاش فترةً منه ، أو آثار فترة منه ، فى احياء القاهرة القديمة ، ولعله ـ كفنان ـ شاء ألا يسير كتابه حسب الترتيب التاريخى للوقائع والأحداث ، وإنما يكتبه بالعكس ، أى إن بداية الكتاب تدور حول سنة ١٨٠٠ ليسير التاريخ حتى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد . ومن عناوين الأقسام الثلاثة للكتاب ، **الظلام** ، **الخط الأبيض والخيط الأسود** ، **الضياء** ، نعرف مدى تأثر المؤلف « بالحدوتة الشعبية » التى لا بد وأن تنتهى نهايةً سعيدة .

إن حسين فوزى فنان حتى أطراف أصابعه ، وهو حين يتحدث عن حتشبسوت ـ الملكة المسترجلة ـ أسماها « **الصعيدية** » وكليوباترا «**بنت الزمار**» وشجرة الدر **أم خليل** » .. وتتردد فى ثنايا الكتاب أصداء حياة اجتماعية كنا نحياها ... لم يتقيد بالنص ، وإنما تصرف به ، لكنه حافظ على الروح ، وفى إيراده للاسماء يأتى غالبا بالاسم الشائع .

يصف كتابه :

« كتابى أدبى محض أحاسب عليه فى حدود الأدب والفن » .

وللشخصية المصرية عند المؤلف ثلاثة أبعاد ؛ البعد الأول إن هذا الشعب تعرض خلال تاريخه الطويل لمحن كثيرة ، فقد سلبه الأغراب قوته ، مثلما سلبه الحكام حريته ، لكنه عكف مع ذلك على صنع الحضارة ، والمشاهد التى خلفتها لنا تلك الحضارة عبر الزمن هى من صنع هذا الشعب لا من صنع حكامه ، سواءً كان هذا الحاكم فرعونًا أم محمد على ... وكان الشعب فى تلك العصور لا يهتم بما يجرى حوله ، ما يجرى خارج حدود حياته ، ينظر إلى حكامه على أنهم **« قطاع طرق »** ... لقد حارب آخر مرة فى عهد الأسرة العشرين، وكانت المرة التالية فى القرن التاسع عشر ... الشعب المصرى إذن شعب حضارة مهمته صنع الحضارة .

البعد الثانى أن ثمة وحدةً فى تاريخ هذا الشعب ... وحدة خلفها نمط الحياة على النيل ، أبرز ما فيها السلوك اليومى للفلاح ، ونظرته إلى أصحاب السلطان . لكن الأهم هو وحدة الشقاء الناجم عن الاستغلال ، سواءً كان هذا الاستغلال آتيًا من القصر الكبير للملك الإله ، أو من قصر **« أفندينا »** ... لا شىء يعزيه غير القيراط الخامس والعشرين .

« كان أهلنا أيام الاحتلال البريطانى ، والإستغلال الأوروبى والليڤانتى ، يجيبون على سؤالنا : لماذا اختص الله الخواجات بكل

هذا الخير ؟ ... تقول الجدة ـ أحكم الحكماء ـ : لهم الدنيا يا بنى ولنا الآخرة . هل عرفت نصيب الشعب المصرى من خيرات أرض ونيله وشمسه ... إنه القيراط الخامس والعشرون ، ومكانه مملكة السماء » .

لقد أكسب الاشتراك فى الشقاء هذا الشعب ، الإشتراك فى التكوين النفسى ، ومن ثم الشخصية ، ولم تستطع أحداث التاريخ أن تغير هذه الشخصية ، بل إن الفلاح كثيراً ما استطاع أن يفرض نفسه على حكامه الأغراب ، وأن يجعلهم مصريين . وكان عدم الرضا من الشعب تجاه سياسة حكامه يأخذ أحياناً طابع المقاومة السلبية ، وأحياناً أخرى يأخذ صورة انتفاضات ثورية ، كانت العقائد الدينية فيها « قطب الرحى » ، واتضحت صورة هذه الشخصية أيام أن كان لا يحكم مصر ملك يقيم بها (مصرياً كان أم أجنبياً) ... شىء من هذا حدث بعد كليوباترا ، وحدث أيضاً بعد الريدانية .

وإذا كان صنع الحضارة من ناحية ، ووحدة الشقاء من ناحية أخرى قد شكلا بعدين هامين فى الشخصية المصرية ، فهناك بعد ثالث ... هذا البعد أتى مع المسيحية ، ثم تبلور أخيراً فى الإسلام . فقد أنجبت مصر مسيحيةً خاصةً بها هى : « **القبطية** » ، ناوأت بها مسيحية الدولة ، وخلقت صورةً جديدةً للمقاومة هى « **الرهبانية** » ، التى أعطتها مصر للعالم ... وبقدر ما أخذت مصر من الإسلام ، بقدر ما أعطت لحضارة الإسلام .

على أنه إذا كانت ثمة فجوة بين مصر العربية المعاصرة ، وبين مصر الفرعونية القديمة ، فإن المؤلف لا يرى بأسًا من استيحاء التاريخ المصرى القديم ، وأن يظل المصرى على اتصال وجدانى بهذا التاريخ . والمؤلف نفسه يهتم بالفترة القبطية ، ويكثر من الحديث عنها ، ويؤكد ضرورة أن تدرس نصوص الأدب الفرعونى ، مثلما تدرس نصوص الآداب الأجنبية ... إن من شأن هذا أن يعيد الإنسجام إلى تاريخنا المصرى وإلى شخصيتنا الوطنية .

ويختتم كتابه :

« إن بلادى خرجت من محناتها ورزاياها محتفظةً بشخصيتها وطبائعها السمحة ، مقبلةً دائمًا على صناعتها الواحدة ، صناعة الحضارة ، برغم كل شىء ، وتحت حكم كل إنسان ، وضد كل إنسان » .

تنتهى رحلة حسين فوزى ... نسافر بعدها إلى كتاب آخر هو **« شخصية مصر ... دراسة فى عبقرية المكان »** للدكتور جمال حمدان. وهنا نتوقف لنجعل لهذا الكتاب دراسةً مستقلةً خاصةً به .

....

كانت الشخصية المصرية ... والبحث عن الشخصية المصرية مجال اهتمام عدد من المفكرين المصريين منذ اعتزمت مصر السفر إلى العصر الحديث ... من هذا وعليه ، فإن صفحات جديدة سوف تضاف إلى كتاب مصر .

الفصل الثانــى

حمدانيات

عن الجغرافيا ومحنة العصر ؛ دراسة فى فكر جمال حمدان

عبقرية شخصية مصر

جمال حمدان ... وذكريات معه

شخصية مصر والطغيان فى فكر جمال حمدان



عن الجغرافيا ومحنة العصر

دراسة فى فكر جمال حمدان

سنة ١٩٥٣ .. حصل شاب مصرى ، اسمه جمال حمدان على درجة الدكتوراه الممتازة من جامعة رادنج Reading فى إنجلترا ، وكان موضوع أطروحته « سكان منطقة وسط دلتا النيل » وفى سنة ١٩٥٩ حصل الدكتور جمال حمدان على جائزة الدولة التشجيعية فى العلوم الاجتماعية ، عن كتابه « دراسات فى العالم العربى » .. وإذا كنا قد دهشنا لحصول شاب فى الثلاثين على هذه الجائزة ، وهى عادةً ما تعطى لمن جاوزوا علامة الأربعين ، فإن دهشتنا تزداد ، وبالتحديد منذ سنة ١٩٦٤ ، حين نجد أستاذاً متخصصاً فى الجغرافيا ـ وجغرافية المدن بالذات ـ يقرؤه العام والخاص ، بل ربما قرأه العام قبل الخاص .

وسوف نحاول هنا ـ مجرد المحاولة ـ تحديد الإطار الفكرى عند جمال حمدان ، أو بوضوح أكثر « النظرية الاستراتيجية العالمية » عند جمال حمدان ، وتفريعات هذه النظرية فى كتبه ، ابتداءً «بدراسات

---

* مقال نشر بمجلة الفكر المعاصر . العدد ٥٥ . سبتمبر ١٩٦٩ .

ونذهب إلى أن بعض الأفكار التى وردت فى « استراتيجية الاستعمار والتحرير » على نحو خاص قد تم تجاوزها ـ واقعًا ـ بعدما جرى من أحداث فى العام ١٩٨٩ وما تلاه ، وربما لم تتهيأ الفرصة لمفكرنا الكبير ، كى يراجع هذه الأفكار ، بسبب رحيله المفاجىء فى العام ١٩٩٣ .

فى العالم العربى » وانتهاءً « باستراتيجية الاستعمار والتحرير» عدا عشرات من المقالات فى مختلف المجلات .

- 1 -

فى أول كتابه « **إستراتيجية الاستعمار والتحرير** » كتب جمال حمدان : « إن الذى يستقرىء مراحل التاريخ السياسى والاستراتيجى يجبهه ـ وهو جدير أيضًا بأن يروعه ـ دائمًا أو غالبًا نمط ثلاثى متواتر لصراع القوى ، قد يختلف عن النمط المعاصر فى التفاصيل والظلال والأبعاد ، ولكن لعله لا يختلف عنه كثيرًا فى أساسياته وجوهره » .

ما هو هذا النمط ؟

إننا لن نستطيع أن نفهم فكر حمدان ، دون أن نفهم قبلاً نظرية العالم الجغرافى الإنجليزى هالفورد ماكيندر H. Mackinder الذى وضع فى أوائل هذا القرن « نظرية المحور الجغرافى للتاريخ » فقد تصور ماكيندر ثمة « جزيرة عالمية » ، تضم العالم القديم ، وتصبح الأمريكتان وأستراليا بمثابة أقمار صغيرة تدور فى فلكها ، وكلّ يقع فى محيط واحد هو « المحيط العالمى » ، وللجزيرة العالمية مركز دعاه ماكيندر Heartland (الاتحاد السوفييتى أساسًا) ، يحيط به « هلال خارجى أو جزرى » (بريطانيا ، كندا ، الولايات المتحدة ، جنوب إفريقيا ، أستراليا، واليابان) ، وبين الهلال الخارجى والهارتلاند يقع «الهلال الداخلى » (ألمانيا ، النمسا ، تركيا ، الهند والصين) .

ويرى ماكيندر أن محور الصراع يدور حول المنطقة البينية ، وهى الهلال الداخلى (القوى البرمائية) ، بحيث تصبح هذه المنطقة ، منطقة « ارتطام أو التحام » ، ويعتقد أنه اجتمعت للهارتلاند عدة عوامل تؤهله للصدارة العالمية ، أهم هذه العوامل عمق الدفاع ، ووضع معادلةً يقول فيها :

من يحكم شرقى أوروبا يسيطر على الهارتلاند .

من يحكم الهارتلاند يسيطر على الجزيرة العالمية .

من يحكم الجزيرة العالمية يسيطر على العالم .

وبعد أن يأتى ماكيندر بأمثلة عديدة من التاريخ ، يفسر بها نظريته، يقترح على بلاده (إنجلترا) خلق دول صغيرة متماسكة فى منطقة الالتحام ـ شرقى أوروبا ـ تفصل بين قوى البر وقوى البحر .

وقد تعرضت نظرية ماكيندر فى الاستراتيجية العالمية للنقد ، كما أجرى عليها آخرون عدة تعديلات ... فماذا كان موقف حمدان ؟

- 2 -

يعتقد حمدان أن نظرية الصراع بين البر (**الفيل**) والبحر (**الحوت**) على المنطقة البينية (**التمساح**) نظرية صحيحة فى جملتها، أو إنه لم تظهر نظرية أخرى فى الجغرافيا تنقضها ، وهو يجعل منها أساساً لفهم التاريخ والاستراتيجية العالمية حتى منتصف القرن العشرين ،

لكنه يعدلها فى الشكل والمضمون معًا ، فهو - أولاً - يحصرها فى العالم القديم ، بسبب حداثة العالم الجديد ، وغياب الولايات المتحدة عن أفق السياسة العالمية حتى الحرب الأخيرة ، ثم يحدد قوة الهارتلاند بسهولة أراضيه التى تدعو إلى الإمبراطورية ، إزاء قوى البحر المتعددة ، ومناعته الدفاعية ضد الغزاة ، لكن عيبه الوحيد فى تعدد القوميات داخله ، وتخلخل السكان والعمران فى القلب . أما قوى البحر ، فهى اسكندناوة ، دنمرك ، هولندا ، بلجيكا ، فرنسا ، بريطانيا ، أيبريا ، إيطاليا ، اليونان ، وتمتاز هذه القوى بكثافة السكان وبطاقة إنتاجية عالية وموقع بحرى حر ، مما دعاها إلى الاستعمار (البحرى) ، ولكن تقطعها الجغرافى نتج عنه تفككها سياسيًا ، وتعدد الصراعات فيما بينها.

بين القطبين الكبيرين تقع منطقة الارتطام التى تجمع بين خصائص البر والبحر ، وهى ألمانيا ، شرقى أوروبا ، البلقان (فيما عدا اليونان) ، الشرق الأوسط (تركيا ، إيران ، الشرق العربى) وقد تمتد إلى الشرق الأقصى ، على أن أهم مواقع هذه المنطقة هى الشرق الأوسط وشرقى أوروبا ، وهو ما تعبر عنه بوضوح العلمين وستالنجراد ، وتتميز منطقة الإرتطام بأنها أقل مساحةً وسكانًا وقوةً ، وأكثر تمزقًا من القوى القطبية ، لكن هذا لا يعنى حتمية التبعية ، لأن هذه الخصائص نفسها قد تكون عامل قوة ، إذا ما اتحدت المنطقة ، أو اتحد الجزء

الأكبر منها ، وهى فى تاريخها مرت بثلاث مراحل « **خط خمود سياسى** » ، « **منطقة رهو سياسى** » ، « **خط استواء سياسى** » .. أولاً بخضوعها لإحدى القوى القطبية (شرقى أوروبا للبر والشرق الأوسط للبحر) ، وثانياً أن تدور فى فلك أو مساومات القوى القطبية بالبلقنة (بعد الحرب العالمية الأولى) ، أو الدول الحاجزة (أفغانستان) ، أو المحافظة على بعض دولها (الدولة العثمانية) ، ثالثاً حين ترتفع قوة المنطقة ، فتمنع الالتحام بين القطبين ، أو أن تسيطر عليهما ، وعندنا ثلاث حالات (الدولة العربية الإسلامية جنوباً ، الدولة العثمانية فى الوسط ، النازية الألمانية شمالاً) ، وإذا كان أغلب القطاع الشمالى يقع الآن فى يدى الهارتلاند ، فإن أغلب القطاع الجنوبى مستقل ، وهو الآن ليس خط خمود سياسى ، ولا منطقة رهو سياسى ، لكنه ليس بعد خط استواء سياسى .

هذا هو الإطار العام لنظرية ماكيندر المعدلة عند حمدان ، أو نظرية حمدان المتأثرة بماكيندر ، ولحمدان إضافات أخرى ، سوف يتحدد مكانها بعد قليل .. على أنه من خلال هذه النظرية تعرض حمدان لما أسماه « **جغرافية الاستعمار والتحرر** » ، باعتبار أن الاستعمار يعبر بوضوح عن صراع القوى القطبية (قوى البحر أساسًا) على المنطقة البينية ، ثم كيف حدث التحرير .

- 3 -

يحدد حمدان مفهوم الاستعمار بأنه سيطرة حضارة متقدمة على حضارة أخرى متخلفة ، من أجل خلق « **نواة متروبوليتانية** » سائدة ، وبهذا فإن الاستعمار ظاهرة حديثة تبدأ مع الكشوف الجغرافية ، أما قبل ذلك فإن الوضع كان أقرب إلى أن يكون تكويناً للأجناس ، وهو فى معظمه صراع بين بر وبر (**الموضع**) ، لكنه مع الاستعمار أصبح صراعًا بين بر وبحر (**الموضع والموقع**) . وأتى الاستعمار على موجتين ، الموجة الأولى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وارتبطت أساسًا بالعروض المعتدلة والبلاد الجديدة ، والموجة الثانية فى القرن التاسع عشر ، وارتبطت أساسًا بالعروض المدارية والبلاد القديمة ، والذى دفع أوروبا إلى الاستعمار لم يكن عبقريتها الخاصة ، وإنما ظاهرة « **هجرة الحضارة صوب القطب** » ، ثم العامل الجغرافى موضعًا وموقعًا ، وأخيرًا الانقلاب الصناعى .

ويقسم حمدان قوى الاستعمار إلى قوى عتيقة (البرتغال ـ إسبانيا) ، قوى عتيدة (فرنسا ـ بريطانيا) ، قوى وليدة (إيطاليا ـ ألمانيا) ، قوى جديدة (روسيا القيصرية ـ الولايات المتحدة) ، قوى شريدة (إسرائيل) ، ثم يحدد أنماطه بعد ذلك فى ثلاثة أنماط ، سكنى ، إستراتيجى ، إستغلالى ، وإن كان البعد الاستغلالى قاسمًا مشتركًا أعظم ، كما أن الاستعمار قد يغير أغراضه ومن ثم أنماطه ،

حسبما تقتضيه الظـروف ، لكنه بصفة عامة فميكانيكية الاستعمار باختصار « **مضخة ماصة فى المستعمرات ، كابسة فى المتروپول ، ورياضياته عملية طرح هنا وجمع هناك** » .

على أن الجغرافيا لعبت دوراً كبيراً فى استراتيجية الاستعمار ، فتشابه هضاب أمريكا اللاتينية مع هضبة الميزيتا (إسبانيا) وجه الإسبان إلى الاستعمار السكنى ، وموقع روسيا بين صحراء الجليد شمالاً وصحراء الرمل جنوباً أدى بها إلى انتهاج سياسة البحار الدفيئة ، وهو بالتالى دفع إنجلترا إلى انتهاج سياسة الاحتواء والتطويق ، بحقن الرجل المريض (تركيا) ، وخلق دول حاجزة (أفغانستان) ، وأدى العامل الجغرافى نفسه إلى أن يتأخر استعمار العالم العربى إلى الفترة نفسها ، ولكن بسبب الجغرافيا الحضارية ، لأن العالم العربى إذا كان أقرب إلى أوروبا مسافةً ، فإنه كان أقرب إليها حضارة ، الفرق هنا فى العلاقة بين القوة والمقاومة . هذه الجغرافيا الحضارية نفسها هى التى جعلت الاستعمار كاسحاً فى إفريقيا بطيئاً فى العالم العربى .

وتنتهى الحرب العالمية الثانية ليتحدد « **خط تقسيم فى التاريخ** » ، لا يقل خطراً عن الكشوف الجغرافية ولا الانقلاب الصناعى ، فقد حدث انقلابان هامان هما التحرير والقنبلة النووية ، وأتى التحرير على ثلاث موجات ، موسمية (آسيا) ، متوسطية (العالم العربى) ، مدارية (إفريقيا) فى الأربعينيات والخمسينيات والستينيات بصفة

أساسية وعلى التوالى ، على أن ما بناه الاستعمار فى خمسة قرون ، هدمه التحرير فى عقدين اثنين ، وإذا كان الاستعمار قد جاء على موجتين ، فإن التحرير جاء على موجة واحدة .

وعادت الجغرافيا لتلعب دورها ، ولكن فى التحرير ، ففى الشرق الأقصى اجتمعت عوامل البيئة الطبيعية والبعد الجغرافى عن القوى المتروپوليتانية والقرب من الصين ، لترجح كفة الثوار ، ثم إن الاستعمار هناك ـ بسبب الجغرافيا أيضًا ـ لم يكن سكنيًا ولا استراتيجيًا ، وإنما كان استغلاليًا ، وهذا كله ساعد على التحرير .. وعلى النقيض ـ تقريبًا ـ كان دور الجغرافيا فى العالم العربى ، لأن الاستعمار هنا استراتيجى (مصر) أو سكنى (الجزائر) أو استراتيجى وسكنى معا (فلسطين) ، فإذا أضفنا عامل القرب الجغرافى ، لوجدنا ضراوة الاستعمار ، على أن التحرير العربى لم يكن صدى للتحرير الأسيوى ، لأن التحرير العربى بدأ مع الاستعمار ، بل إن أثره (ثورة ١٩١٩) على التحرير الآسيوى (الهند) كان كبيراً ، إلى جانب أن لدينا تواريخ أقدم للتحرير وإن كان شكليًا (مصر ١٩٢٢ أو ١٩٣٦) ... أما إفريقيا فإن المثال العربى كان قويًا ازاءها مباشراً وحاسماً ، بحيث أن مصر لعبت فى إفريقيا دوراً أشبه ـ وإن اختلفت الوسيلة ـ بدور اليابان فى آسيا .

- 4 -

ما هى خريطة الاستراتيجية العالمية بعد سنة ١٩٤٥ ؟

تحدد سنة ١٩٤٥ استراتيجيًا الصراع بقوى برية مطلقة (الاتحاد السوفييتى) وقوى بحرية مطلقة (الولايات المتحدة) ليصل إلى قمة التناقض الجغرافى والاستراتيجى والأيديولوجى ، وكلا القوتين بمصادرهما قوى دينوصورية .. قوى ماموث .. لكن إذا كان عام ١٩٤٥ يحدد ظهور هاتين القوتين ، فإنه يحدد أيضًا بداية عصر جديد فى تاريخ البشرية والاستراتيجية العالمية ، وهو ظهور ما يسمى بالاستراتيجية التكنولوجية ليحل محل الاستراتيجية الأرضية ؛ بوضوح أكثر لم يعد هناك شىء اسمه بعد جغرافى أو قرب جغرافى ، إلى جانب ضياع مزية العمق الاستراتيجى .

هل معنى هذا إلغاء الاستراتيجية التقليدية تمامًا .. أو بعبارة أخرى نظرية ماكيندر ؟

يرى حمدان أن توازن الرعب الذى أحدثه العصر النووى ، وظهور الغواصات النووية والصواريخ عابرة القارات ، أدى إلى تعايش الاستراتيجية التقليدية مع الاستراتيجية النووية ، خاصةً فى أحوال الحروب المحلية المحدودة التى تشنها الإمبريالية العالمية على دول العالم الثالث ، وبقاء سياسة الأحلاف والقواعد العسكرية ، فضلاً عن أن

الموقع الجغرافى تبقى له أهميته فى وقت السلم .. على أنه بصورة عامة لا أحد يريد أن يشهد (**القيامة النووية**) .

فما الحل ؟

لقد تحولت نظرية ماكيندر عند حمدان من مفهوم جغرافى إلى مفهوم حضارى ، وهو ما تعبر عنه بوضوح سياسة « **عدم الانحياز** » .. إن هذه السياسة ولدت فى المنطقة البرمائية ، منطقة التمساح الذى تحول إلى حمامة (بين النسر والصقر) .. هذه المنطقة تحولت ، أو إنها فى طريقها إلى أن تتحول من « **منطقة التحام** » إلى «**منطقة التئام**» من منطقة خمود أو رهو سياسى إلى خط استواء سياسى ، من المحافظة على نفسها إلى المحافظة على العالم ، وكان عدوان ١٩٥٦ شهادة ميلاد عدم الانحياز نهائياً وبنجاح .

وانتهجت هذه المنطقة لنفسها أيديولوجية تختلف عن أيديولوجية القطبين المتصارعين ، وتعبر عنها أيديولوجية الثورة المصرية التى حققت معادلة هيجل المشهورة ، ولكن على مستوى آخر ، فإذا كانت الثورة الفرنسية قومية طبقية ، وإذا كانت الثورة الروسية لا قومية لا طبقية ، فإن الثورة المصرية (وثورات العالم الثالث) قومية لا طبقية .لكن عدم الانحياز يمر بأزمة .. بل أزمتين ؛ أزمة من الداخل ، وأزمة أخرى مفروضة عليه من الخارج ، الأزمة الأولى يوضحها أن أضلاع القوة فى عالمنا المعاصر هى السياسة والاقتصاد والعلم ، وهى ما يفتقر إليها

العالم الثالث جميعًا ، لكن هذه الأزمة من الممكن التغلب عليها ، بفصم علاقات التبعية (الكومنولث) وشجب الخلافات بين دول العالم الثالث وعمليات التوحيد ، ثم التنمية الكثيفة ، ورأس الحرية التصنيع ، والعلم الذى هو حضارة القرن العشرين .

على أن أكبر ما يتعرض له العالم الثالث من أخطار ، إنما يأتى من جانب الولايات المتحدة التى جعلت هذا العالم يمر بمرحلة حرجة؛ ذروتها يونيو ١٩٦٧ ، حين تخفت النجمة الخماسية (الولايات) وراء النجمة السداسية (إسرائيل) ، فالولايات المتحدة ورثت الرأسماليات الليبرالية والفاشية جميعًا ، ووصلت إلى مرحلة فوق الرأسمالية ، وتحولت إلى رجل شرطة عالمى ، تحاول أن تفرض مبدأ مونرو علـى العالم غير الشيوعى ، سياستها هنا « **ذهب اليانكى وسيفه** » .. وجعلت الكثيرين فى بلاد العالم الثالث يتصورون أن ثمة تناقضًا بين مبدأى التعايش السلمى وعدم الانحياز ويتساءلون عن جدوى هذا المبدأ الأخير .

إذن .. ما الحل ؟

يقول حمدان إن ثمة مصلحةً مشتركةً تجمع بين العالم الثانى والعالم الثالث لأن ضرب العالم الثالث قد يكون حربًا عالميةً (بالقطاعى) ... إذن فلابد من وحدة عمل استراتيجية لا أيديولوجية ، وتتجلى هذه الوحدة فى حروب إقليمية محدودة ، وحروب التحرير

الوطنى ، وقد بدأت تتضح معالم هذه السياسة ، فالاتحاد السوفييتى يحول أسلحته الدفاعية من تقليدية إلى أسلحة تناسب حروب ما وراء البحار ، وليس خروجه إلى البحر المتوسط ، إلا ليلغى اعتباره بحيرةً أمريكية ، بل إن هذا يؤدى إلى ما تنبأ به ماكيندر من تحول الاتحاد من قوة بحرية إلى قوة برمائية ، أما حروب التحرير الوطنى فهى مسئولية العالم الثالث ، بالاشتراك مع حلفائه الطبيعيين أو ما عبر عنه حمدان **« الحد الأقصى من السلاح الشرقى فى يد الحد الأقصى من القوات الوطنية »** .

وأخيراً يختزل الصراع بين العالم الأول والعالم الثالث فى الصراع بين العالم العربى (قلب العالم الثالث) وبين الولايات المتحدة (قلب العالم الأول) ، بتحديد أكثر مصر ـ الولايات (إسرائيل) .. إنه صراع بين أقدم دولة هامة فى التاريخ (**مصر**) وأحدث دولة هامة فى التاريخ (**الولايات**) .. فى النهاية يتحدد الصراع بهذه المعادلة :

مصير الإمبريالية العالمية يتوقف على مصير العالم الثالث .

مصير العالم الثالث يتوقف على مصير العالم العربى .

مصير العالم العربى يتوقف على مصير فلسطين ـ إسرائيل .

- 5 -

قدر العالم الثالث إذن هو قدر العالم العربى ، وقدر العالم العربى فى الوحدة ، وحمدان هنا لا يتحدث عن القومية العربية ، فهذا شأن علماء الاجتماع ، لكنه يتحدث عن الوحدة العربية لأنها مجال الجغرافى أساسًا ، وفى ميدان القومية العربية لا نجد ـ حقيقةً لا نجد ـ اسمًا أكبر من ساطع الحصرى ، وفى ميدان الوحدة العربية أيضًا لا نجد اسمًا أكبر من ... جمال حمدان .

كيف أتى تحليل حمدان ؟

فى كتابه « **دراسات فى العالم العربى** » ، يقول حمدان :

« ليس من الضرورى أن يكون لكل منطقة شخصية إقليمية متفردة، وليس من الضرورى أن تكون الشخصية الإقليمية للمنطقة كاملة التفرد والتمايز عن غيرها ، ولكن لا مفر من أن نعد العالم العربى واحدًا من بين تلك المناطق النادرة التى تمتاز بشخصية إقليمية متفردة ، لدرجة ليست أقل من مذهلة ، فهناك نغمة أساسية وإيقاع مشترك ، يرين على جميع نواحى الوجود الطبيعى ويتكرر بالحاح فى كل جوانب الحياة البشرية فى الماضى والحاضر » .

ما هى هذه الشخصية الإقليمية ؟

إن شخصية العالم العربى الإقليمية تبدو فى أنه إقليم اتصال ، وإقليم الاتصال المثالى بالضرورة ، من جميع النواحى الطبيعية والبشرية والتاريخية والحضارية والسياسية ، فهو أشبه بجزيرة من اليابس تتوسط الجزيرة العالمية ، ومن ثم فهو إقليم انتقال من المداريات إلى المعتدلات، يقع حيث يتعامد خط الاستواء الصحراوى المتخلخل السكان ، وخط الاستواء السكانى الكثيف ، لذا فقد جمع بينهما كحل وسط ، ففيه تتداخل الزراعة مع الرعى ، ويصبح ممراً لعدة سلالات ، لكن هذا لم يؤد إلى « **فوضى جنسية** » ، بسبب حواجز البحر والجبل والصحراء ، فالفرشاة الأساسية سلالة بحر متوسط ، وهى سلالة انتقالية ، إلى جانب أنه جسر سهلى بين قطبى المعمور المعتدلات والموسميات ، مما ساعد على تجارة المرور ، فضلاً عن أن البيئة الفيضية فيه دفعت إلى صنع الحضارة ، تحميها الدرقة الصحراوية ، ثم إن موقعه بين قوى البر وقوى البحر ككتلة برمائية أدى به إلى أن يخضع لإحدى الكتلتين (**الاستعمار**) أو يخضعهما (**الإسلام**) أو يمنع الصراع بينهما ، (**الحياد الإيجابى**) .

وإذا كان العالم العربى إقليم اتصال بين أقاليم العالم ، فإنه إقليم متصل فى ذاته ، وهذا معناه الوحدة ، وحمدان هنا يفرق بين نوعين من الوحدة ، « **وحدة مورفولوجية** » أى تركيبية ، ويقصد بها الحد الأقصى من التجانس الداخلى ، والحد الأقصى من التنافر الخارجى ، وبين « **الوحدة الوظيفية** » أى التكامل فى الوظائف السيكولوجية

والثقافية والاقتصادية ، ويصل هذا التكامل إلى قمته فى الوحدة السياسية ، وعنده أن العالم العربى يتمتع بقدر كبير من الوحدة المورفولوجية ـ خاصة فى جانب التنافر الخارجى ـ وبقدر أكبر منه من الوحدة الوظيفية .

فالعالم العربى واضح التحديد بالبحر والجبل والصحراء ، وهذا ما حفظ له شخصيته ، وخلق التجانس داخله ، أما الشذوذ فهو فى الأقليات الدخيلة ، التى أتى بعضها مع الاستعمار ، ثم إن هناك نظائر جغرافية داخل هذا العالم ، أى تنافر يأخذ صورةً متكررة ، من بيئات فيضية (مصر ـ العراق) أو بحرية جبلية (المغرب ـ الشام) ، أو صحراوية (الصحراء العربية ـ الصحراء الكبرى) . وهذا كله يؤدى بالتبعية والضرورة إلى الوحدة الوظيفية ، لأن أعلى مراحل التطور العضوى هو الحد الأقصى من التخصص (أى التباين) . مع الحد الأقصى من التكامل (أى الترابط) ، وليس غريبًا أن فرنسا تختزل أقاليم أوروبا الطبيعية الثلاثة جميعاً .

وإذا كانت الوحدة الوظيفية (السياسية فى النهاية) لم تحقق أغراضها بعد ، إلا أن الضرورة الاستراتيجية فى عالم الكتل الدينوصورية، تحتم على العالم العربى أن يتحد ، لأنه إقليم اتصال ، سواء من ناحية الموقع الخارجى ، أو من ناحية المضمون التركيبى الداخلى وهى عناصر ضعف بلا وحدة .. والوحدة هنا ليست بدعةً ، حدثت أيام الأتراك ، وليس امتداد الوطن العربى (سبعة آلاف كيلو

متر) يحول دون تحقيق الوحدة ، لأن القطار يستطيع هنا أن يلعب الدور نفسه الذى لعبه فى ألمانيا ، فضلاً عن أن الوحدة تستطيع أن تحل مشاكل إفراط السكان (مصر) أو تفريطهم (العراق) . إلى جانب حل مشكلات الأقليات فى الدولة الكبيرة .

ونعود ثانيةً إلى الاستراتيجية العالمية ...

يقول حمدان : « إن على جميع أعضاء منطقة الارتطام فى العالم القديم واجبًا أخلاقيًا نحو البشرية ، لا يقل خطراً وإلزامًا عن واجبها نحو نفسها ، هو أن تتحول إلى كتلة ثالثة فعالة تمنع مصير العالم من أن يتحدد بالصراع بين القوى القطبية وحدها ، وتصبح طرفًا ثالثًا فى معادلة توازن القوى الجغرافية فى العالم ، فتصبح بذلك خط استواء حقيقى بدل منطقة رهو ، تصبح بمثابة جيروسكوب للتوازن الاستراتيجى العالمى ، يفرض سياسة التعايش السلمى ، بدل منطقة ارتطام والتحام ، تغرى بالاصطدام ، تصبح ستاراً حريريًا بدل ستار حديدى ، وليس من سبيل إلى هذا إلا بالقوة ، بالوحدة القصوى بين أى قطاع متجانس الشخصية فيها ، والعالم العربى أبرز وأخطر حلقة فى سلسلة المنطقة يصدق عليها هذا التخصيص ».

ولكن ما هو الشكل الذى يقترحه حمدان للوحدة ؟

إنه يقترح قيام أربع وحدات ، الهلال الخصيب ، الجزيرة العربية ، وادى النيل ، المغرب الكبير ، ثم ينشأ بين هذه الوحدات اتحاد فيدرالى يضمها جميعاً .

هذه هى نظرية حمدان فى الوحدة العربية ، ولا يفوت باحث (جغرافى) حين يتعرض لهذا الموضوع أن يتحدث عن دور البترول فى قضية الوحدة وسوف يكون السؤال كما طرحه حمدان نفسه : « هل دفع البترول حركة الوحدة العربية أم دافعها ... هل غذاها أم غزاها؟» .

يجيب حمدان على هذا السؤال فى كتاب مستقل بعنوان « **بترول العرب** » فيعرض أولاً للجانب السلبى من الصورة ، فالبترول من حيث إنه مادة استراتيجية عطل التحرير ، ودعم دعاوى الاستعمار (إسرائيل) ، وأغرى بأطماع توسعية (إيران) ، وروج لاقتصاد هدمى وتبعيات اقتصادية ، ثم إنه لتطوحه فى مناطق التخوم الصحراوية والساحلية أثار خلافات بين وحداته السياسية المنتجة ، فضلاً عن إنه يدعم الاتجاهات الانعزالية فى وحداته الغنية .

ومع هذا فإن البترول كان حقيقاً بأن تكون جوانبه الإيجابية أوضح بكثير من جوانبه السلبية . وهذا يبدو فى أنه غير من البنية الاجتماعية فى مناطقه ، ورفع المستوى الحضارى لها ، إلى جانب أنه أعاد توزيع الأثقال السياسية لدول المنطقة ، وخلق نوعًا من الترابط بين المنتج والمخرج (الأنابيب) ، ونمى علاقات التموين والسياحة .

على أن البترول إذا صح أنه عقبة فى سبيل الوحدة العربية ، إلا إنه عقبة عارضة ، أما العقبة الكبرى ، فهى إسرائيل ، فكيف عالج حمدان القضية الفلسطينية ؟

- 6 -

فى كتاب صغير له بعنوان « **اليهود أنثروبولوجيا** » طرق حمدان القضية من زاوية جديدة ، ربما كانت ارهاصاتها الأولى عند الدكتور محمد عوض محمد « الإستعمار والمذاهب الإستعمارية » .. لكن حمدان هنا جراح يمسك بالمشرط ليحدد أين موقع يهود صهيون من يهود التوراة ، وجاء هذا التحديد أنثروبولوجيا وهو يفرق بين نوعين من الصفات ؛ صفات مكتسبة من البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية ، وصفات أخرى وراثية ، وهذه الأخيرة هى « **محور الدراسات الأنثربولوجية جميعاً** » ؛ فمن مصادرنا القديمة يبدو يهود التوارة مجموعةً ساميةً من سلالة البحر المتوسط من سمرة فى الشعر وتوسط فى القامة وتوسط إلى طول فى الرأس وأنف اقنى وضيق فى الوجه ، وأقرب الممثلين لهم السامريون ، وعددهم أقل من مائتين ، يقيمون فى إحدى قرى نابلس ، أما يهود اليوم فإن ٨٠٪ منهم لا تتطابق ملامحهم الانثروبولوجية الوراثية مع ملامح يهود التوارة ، فلا توجد وحدة لونية لهم ، والأنف الأقنى تكاد توازى نسبته عندهم نسبته عند (الجنتيل) والأهم هو شكل الرأس ، فهم يتسمون بعرض الرءوس ، والقليل منهم طوال الرؤوس ، على أن هذا القليل (الشرقيون وبعض

السفارديم) عاشوا بين أقوام طوال الرءوس .

يأتى حمدان بعد ذلك بأدلة الاختلاط التاريخية ، من تحول دينى (خزر ـ فلاشة ـ تاميل) ، وتزاوج (نبهت الكنيسة إلى خطره) ، ثم إن الاتجاه العلمانى الحديث وشيوع الزواج المدنى (أمريكا) أدى إلى وجود أنصاف يهود وأرباعهم ، بل إن كثيراً من اليهود أثبتوا أصولهم الآرية إبان عهد السطوة النازية فى ألمانيا .

نحن إذن أمام أوربيين تهودوا ، وليس أمام يهود تأوربوا .

« وفى النتيجة فإن جسم الطائفة ليس ثابتًا جنسيًا ، بل هو متحرك وفى تغير داخلى مستمر ، وفى ابتعاد دائم عن الأصول الأولى ، بحيث يتضاءل حجم النواة النووية الحقيقية من بنى إسرائيل التوارة فيهم ، حتى لتكاد تختفى وتنقرض ، فضلاً عن أن تظل قابلةً للتعرف عليها وتحديدها . إنها عملية إحلال وإبدال مزمنة دائمًا ، معدية أحيانًا ، ظاهرة مستمرة وئيدة ربما ، ولكنها أكيدة قطعًا ، إنها تكاد تكون عملية تغيير دم كلية وشاملة » .

إن أخشى ما تخشاه الصهيونية هو الاندماج ، لأن هذا الغاء لوجودها أصلاً ، البديل هو ضد سامية جديدة .

وعلى المستوى السياسى يؤكد حمدان ارتباط الصهيونية عضوياً بالإمبريالية العالمية ، لأن بداياتها تعاصرت مع آخر موجة كبرى للاستعمار القديم ، لكن تحققها تعاصر مع أول موجة كبرى للإستعمار الحديث ، بحيث أصبحت إسرائيل فى النهاية قاعدةً أمريكيةً بدرجة دولة ، فجمعت بين أنماط الاستعمار المختلفة ـ استراتيجيًا واستغلاليًا وسكنيًا ـ وأثبتت بوضوح إن الصهوينية هى أعلى مراحل الإمبريالية .

أين يكمن الحل ؟

الحرب .. وأن يعجل بالحرب ، ولن نقارن بين إسرائيل والصليبيات الوسيطة لأنها (إسرائيل) تفوقها فى إمكانياتها وأحقادها ودعاويها ، ثم إنه لا خوف من امتلاكها قنبلة أو اثنتين من طراز هيروشيما ـ وهو أمر مستبعد ـ لأنها إذا استطاعت عن طريق هذه القنبلة أن تؤثر فى جزء من طاقة الأمة العربية ، إلا أن الجسم الأساسى من هذه الطاقة يبقى سليماً ، ويستطيع أن يرد الضربة ضربات ، تقليدياً إذا لم يكن نووياً .

لكنه يجب أن يصاحب العمل العسكرى عمل آخر ، هو من اختصاص المثقفين ، فعلى الرغم من صعوبة مواجهة الدعاوة الصهيونية فى الخارج ، إلا إنه من الممكن النفاذ إلى نقابات العمال وأحزاب اليسار والاشتراكيات الأوروبية ، ويجب وضع مرجع كامل عن

القضية الفلسطينية باللغات الأجنبية « وخلف الجميع لابد من معهد كامل للدراسات الفلسطينية » .

ولكن أيهما أسبق الوحدة العربية أم تحرير فلسطين ؟

يرى حمدان أن الوحدة الدستورية طريق مثالى إلى فلسطين ، لأن اختلاف الأنظمة الاجتماعية بين العرب يشكل عقبةً فى طريق الوحدة، لكن هذا الاختلاف نفسه لن يحول دون وحدة عمل ، أو حد أدنى من وحدة العمل ، خاصةً وإن إسرائيل لن تنتظر حتى تتحقق الوحدة الكاملة ، لأنها بطبيعة تكوينها « **إسفنجة غير قابلة للتشبع** » تمتص طاقة المنطقة ، وأداة فى يدى الإمبريالية لضرب حركات التحرير.

- 7 -

بانتهاء تقويم حمدان للمشكلة الفلسطينية ينتهى – شكليًا – تحليلة للاستراتيجية العالمية المعاصرة باعتبار فلسطين – إسرائيل الموقع (أو الموقعة) الذى سوف يحدد مصير العالم العربى ، ومن ثم مصير العالم الثالث ، لكنه بقدر ما كانت إسرائيل وجه (أو واجهة) العالم الأول فى مواجهته للعالم الثالث ، فإن مصر وقعًا (وواقعًا) هى قلب العالم الثالث فى مواجهته للعالم الأول .

فكيف كان موقف حمدان ؟

إنه يتحدث عن مصر وزعامتها داخل العالم العربى ، وكيف أن هذه الزعامة مسئولية فادحة تفرضها الطبيعة ، لكن مصر من أجل أن

تقوم بهذه المسئولية ، لا بد لها من أن تستكشف ذاتها .. شخصيتها الوطنية ، وموقع هذه الشخصية فى العالم ... أن تتلمس حلاً للجوانب السلبية فى صورتها ، لأنه إذا كان من لوازم النصر أن نعرف عدونا ، فإن من لوازمه أيضاً أن نتعرف أنفسنا ومواطن الضعف فينا .

لم يكن حمدان أول من تحدث عن الشخصية المصرية ، لكن كتابه « **شخصية مصر** » هو أنضج محاولة للحديث عن هذه الشخصية (قارن : العقاد ، حسين مؤنس ، شفيق غربال ، حسين فوزى ، نعمات فؤاد) ، وكتابه هذا إذا كان فى أساسه جغرافيًا (**الموضع - الموقع**) إلا إنه يبدو للمشاهد جغرافيا إنسانية ، إذا جاز التعبير ، لا يتيسر تأليفه إلا لإنسان ينفتح على الإنسانيات .

حدد حمدان أبعاد الشخصية المصرية فى التجانس والوحدة بسبب النيل والصحراء ، المركزية لضيق مساحة المعمور ، تعادل الموضع والموقع فى أحوال القوة وتخلف الموضع عن الموقع فى أحوال الضعف، ملكة الحد الأوسط بسبب عزلة مصر فى الموضع وانفتاحها فى الموقع ، أبعاد حضارية وسياسية فى المنطقة حولها ، الإستمرارية فى تاريخها وشخصيتها ، العروبة وزعامة العروبة .

ثم يجيب حمدان على هذا السؤال التقليدى : لماذا اتسم التاريخ المصرى بالصورة الدرامية الحزينة ، بحيث تصور البعض أن القضية هنا حتم تاريخى ، فيقول : « **إن ما تكرر فى بعض فترات تاريخنا من**

مظاهر الطغيان ، لم يكن إلا انحرافةً اجتماعيةً ، من صنع الإقطاع لا النيل ، ومن فعل الجغرافيا السياسية لا الطبيعية » ، ثم إن التغيير قد بدأ فعلاً ... الثورة الاشتراكية ، الحكم المحلى ، السد العالى ، التصنيع ، الوحدة العربية ...

- 8 -

ولكن إذا كانت نظرية ماكيندر قد تحولت فى النهاية عند حمدان من مفهوم جغرافى إلى مفهوم حضارى ، فإنه يتحدث عن إفريقيا فى كتاب كامل « **إفريقيا الجديدة** » وإمكانية استقطابها إلى العالم الثالث، ولكن إذا كانت إفريقيا هى « قارة المستقبل » فإن مستقبل القارة يكمن فى القومية ... فالواجب إذن هو تعميم مبدأ القومية وتعميقه ، ولكن هذا لا يعنى أن هناك شيئاً اسمه القومية الإفريقية ، إنما الصحيح إننا أمام قوميات إفريقية ، فالجنس يتراوح بكل نسب القهوة واللبن ، ولدينا عدد من اللغات يصل إلى علامة الألف ، فضلاً عن الثنائية (أحياناً الثلاثية) الدينية ، ولا يخفى الاختلاف فى المستويات الحضارية والثروات المادية ، وتقطع اللاندسكيب (بنية الأرض) بين الصحراء والسافانا والغابة المدارية إلى جانب الامتداد .

إذن فلا يوجد شيء اسمه القومية الإفريقية ، نحن لا نقول قومية أسيوية ولا قومية أوروبية ، وليس معقولاً أن ننتقل من مستوى القبيلة إلى مستوى القارة مباشرة ، بل إن الاستعمار لعب دوراً (ولكن جنوب

الصحراء) فى تنمية القومية ، دعاة القومية الإفريقية أنفسهم تتراوح آراؤهم بين الوحدة التامة والتعاون ، بل إن بعضهم له صلات استعمارية ، يريد أن يركب الموجة ، مادامت لن تؤدى إلى شىء .

ومع ذلك فإن المؤلف لا ينكر وجود ما يسمى « بالشخصية الإفريقية » يشترك فيها معظم الإفريقيين ، وتتمثل فى محاولة البحث عن تواريخ قومية وقيم ومثل سلفية ، والتصدى لعقدة اللون ومركب النقص الحضارى ، والبحث عن لغة خاصة ... والترجمة الحقيقية لهذه الشخصية هى فيما يسمى بالتضامن الإفريقى على المستوى السياسى ، والسوق المشتركة ، على المستوى الاقتصادى .. إنها ببساطة وحدة عمل ، وليست وحدة دستورية .

فى النهاية يقدم حمدان مشروعًا لخريطة جديدة للقارة ، تقوم على أساس القوميات الموجودة فعلاً ، أو التى من الممكن أن توجد فى المستقبل ، وبهذا نستطيع أن نختزل عدد دول القارة (خارج العالم العربى ومدغشقر) إلى اثنتى عشرة دولة ، وهو هنا يتحرز فيصرح بأنه يقدم مادة للدراسة ، لا تجاوز فى أبعادها خطوط التقسيم الإقليمى إلى تعيين الحدود السياسية نفسها ، وكانت ضوابطه هى ، التخطيط الحر ، إعتدال الأحجام ، القوة الاقتصادية ، التكافؤ المادى ، التجانس البشرى، حرية الخروج .

- 9 -

وبعد ... فنحن منذ الجبرتى (آخرون يقولون رفاعة) نحاول الوصول إلى فكر له نكهة مصرية ، إن لم يكن شخصية مصرية ، لكننا نلاحظ أن ثمة انفصالاً شبكيًا بين الفكر والواقع عندنا .. الفكر لم يستطع أن يؤثر فى حياة الإنسان المصرى تأثيره فى بلاد أخرى غير مصر ، قد نختلف فى الأسباب ، وأقول إن التخصص(على النمط المصرى) كان سببًا فى تخلف فكرنا عن أن يعيش فى عالم القرن العشرين ، أصبح التخصص عندنا قوقعةً يتخفى فى داخلها محار الجهل .. إن لدينا شئنا أم لم نشأ ظاهرة اسمها (جهل باسم التخصص) . على أن التخصص لا يكون فى القراءة قدر ما يكون فى الكتابة ، فثمة خط عام يصل بين المعارف الإنسانية المتنوعة ، خلف هذه المعارف تكمن الفلسفة التى هى فى النهاية نظرة شمولية إلى الكون .. إن عدم فهمنا الواعى للتخصص أدى إلى انعزال العلوم بعضها عن بعض ، فضلاً عن انعزالها عن المجتمع ، وأدى أيضًا إلى تخلفنا فى مجال العلوم الحديثة ، وبعضها يضم أجزاء متفرقة من مجموعة أخرى من العلوم .

الجديد الذى أتى به حمدان إنه جعل الجغرافيا تنفتح على الإنسانيات الأخرى ، بل إنه يجعلها **« علم بمادتها فن بمعالجتها فلسفة بنظرتها »** ، إنها باختصار فلسفة المكان الذى يختصر الحياة

الإنسانية جميعها بمعارفها المختلفة ... لقد حول حمدان الجغرافيا من حقائق إلى أفكار ، وعقد صلات مديدة بين جغرافية الأفكار هذه وبين الإنسانيات الأخرى ، بحيث قد يستغرب القارئ كيف أنجبت الجغرافيا ـ وجغرافية المدن أصلاً ـ كتاباً مثل « **شخصية مصر** » .

وحمدان بعد ذلك يتمثل حاجات عصره ، يكتشف القوانين التى تحرك علاقاتها ، ثم هو يردها بعد ذلك إلى أرض الواقع ، يحاول أن يغير منه ، باختصار لقد وظف الجغرافيا من أجل خدمة حياتنا اليومية ... الوحدة العربية ، الشخصية الوطنية ، البترول ، الاستعمار ، إفريقيا ، عدم الانحياز ، الإستراتيجية العالمية ، بل إنه يوظف جغرافية المدن نفسها من أجل أن نعالج ظاهرة المدنية وهى ظاهرة عامة وعربية وجاء هذا العلاج فى ثلاثة كتب أحدها بالإنجليزية ولا يوجد غيرها فى المكتبة العربية .

ثم هل هناك قضية تشكل علينا حياتنا ، بل ونتعاطاها يومياً ، مثل قضية فلسطين ، إن كتابه عن أنثروبولوجية اليهود أبرز ضرورة دراسة القضية الفلسطينية علمياً وليس ديماجوجياً .

بعد يونيو وبعده مباشرة يقرر : إن الحل السياسى غير ممكن ، لن يرضى به العدو إذا رضينا به نحن ، ولا يوجد صقور وحمائم فى إسرائيل ، فالجميع يقررون إنها « تابو » لا يمس ثم هو يضيف : **« نحن فى الحقيقة ـ حتى لو انسحب العدو الإسرائيلى بالسياسة**

ولن ينسحب ـ بحاجة إلى نصر عسكرى ولأكثر من سبب ، فلا يفل الهزيمة العسكرية إلا نصر عسكرى ، وحتى النصر السياسى لا يعدل ولا يمحو وصمة الهزيمة العسكرية » ... بعد ذلك يضيف بأنه يجب على دبلوماسيتنا أن تنمى عقدة الذنب فى الغرب عن مسئوليته فيما حدث لشعب كامل (فلسطين) ، وإنه يجب الرد على دعاية العدو وهى دعاية عاطفية بالمنطق الذكى ، وهو يحدد هذه الدعاية فى عملية الاغتصاب ، طرد اللاجئين ، علاقة إسرائيل بالاستعمار ... وبعد أن يفند دعاوى الصهاينة يأتى بمقولاتهم ، وعلى الجانب الآخر ما يجب أن تكون عليه مقولاتنا .

وإذا كان العلم هو « **حضارة المستقبل** » أو إنه السبيل إلى المجتمع العصرى ، فإن حمدان لا يعتقد أن ثمة تناقضًا بين الأيديولوجيا والتكنولوجيا ، لكننا إزاء قضية القضايا ـ فلسطين ـ يجب ألا نجعل المعاصرة (بالضرورة) مدخلاً إلى فلسطين « **ليس صحيحًا إننا لن نقهر إسرائيل حتى نحقق الدولة العصرية ، وإنما الصحيح إننا لن نحقق الدولة العصرية ، حتى تذهب إسرائيل ، فوجودها بالوعة لا قرار لها ، تمتص وتبتلع كل جهود العرب نحو التقدم ، وتشكل معوقًا ومعطلاً ومؤخرًا لوصولهم إلى العصر ودولة العصر** » .

ولم يتعرض حمدان لنقد قدر ما تعرض له من جانب هؤلاء الذين ينكرون ـ أو يدنون ـ من دور الجغرافيا فى صنع التاريخ ، بدأ هذا النقد

مع ساطع الحصرى الذى خصص باباً كاملاً فى كتابه « **حول القومية العربية** » لمناقشة ما ورد فى كتاب حمدان « **دراسات فى العالم العربى** » ، على أن منطلق الحصرى فى نقده تحدد فى « إن الذى يكون أساس القومية هو اللغة والتاريخ لا الجغرافيا » ... ونرد على هذا بأن حمدان لم يذكر أنه ينظر للقومية العربية ، وإنما هو ينظر للوحدة العربية ، والمفهومان ـ القومية والوحدة ـ وإن كانا متصلين إلا أن كلا منهما كيان بذاته .. ثم إن الحصرى إذا كان قد رفض الجغرافيا ، فإنه رفض العوامل المادية (الاقتصادية) فى كتبه كلها .

وإذا كان كتاب « شخصية مصر » قد تعرض للهجوم باعتبار أن المؤلف قدم صورةً قاتمةً لهذه الشخصية ، تناسى فى رسمها العوامل الاجتماعية فى تكوين بنية الشخصية الوطنية (الإقطاع مثلاً) ، إلا أن حمدان يؤكد أن هذه الصورة القاتمة هى فرضية من الجغرافيا السياسية ، وليست من الجغرافيا الطبيعية ، الأمر الذى يفسر تغييراً واقعاً اليوم ، وهو إذا كان ـ فرضًا ـ قد ركز على الجوانب السلبية ، فإن لهذا التركيز ضرورته ، من أجل رصد هذه الجوانب وتحديدها ، ومن ثم يتسنى مواجهتها بعد ذلك .

إن حمدان ـ فى الأحوال جميعها ـ لا يغمط أثر العوامل الاجتماعية ، بل والميتافيزيقية فى صنع التاريخ ... فنظرية ماكيندر تحولت عنده من مفهوم جغرافى إلى مفهوم حضارى ، والإسلام ليست له ضوابط تتصل بالصحراء ، ولا بخط الاستواء ـ كما زعم

البعض ـ وإنما الذى تحدده قوى ميتافيزيقية أولاً وأخيراً وعوامل أخرى معوقة أوربية استعمارية أساساً .

على أن حمدان قد يقع فى بعض الهنات التاريخية ، مثل اعتباره الاستعمار « **مجرد جملة اعتراضية فى تاريخ البشرية ، وظاهرة فى الجغرافيا السياسية عابرة مهما طالت ، وهى عابرة لأنها غير طبيعية فى النهاية** » ... والحقيقة أن الاستعمار ليس مجرد جملة اعتراضية ، وإنما هو مرحلة فى تاريخ البشرية ـ حتمية ربما ـ أتت نتيجة التطور الناشىء فى عمليات الإنتاج ، وتحول الرأسمالية من « برج » إلى « متروبول » .

أما أسلوب حمدان أو طريقة كتابته للجغرافيا فهى تحتاج إلى دراسة بلاغية نقدية مستقلة ، وعبارته ليس سهلاً استيعابها فضلاً عن تمثلها ، ولكن ليس سهلاً أيضًا نسيانها . كما إن له إضافات فى مجالات التعريب والاشتقاق والنحت أسهم بها فى معالجة مشكلة المصطلح العلمى عندنا .

إن جمال حمدان علامة ، بل علامة كبيرة ، على الطريق إلى فكر مصرى معاصر ، وهو الآن فى رحلة الحياة ، وصل إلى سنوات الأربعين ، وسوف تكون أمامه سنوات طويلة ، يثرى فيها حياتنا ، يعطينا من زاد فكره ... من هذا وعليه ، فإن ، دراستنا هذه تبقى ناقصة، وسوف تأتى بعدها دراسات أخرى ، تبدد من سمائنا سحابةً اسمها : « مؤامرة صمت » .



عبقرية شخصية مصر

فى عصر يموج بالحركة كعصرنا ، تكونت فيه أمم وتتكون فيه أيضاً أمم ، يصير الحديث عن شخصيات هذه الأمم شيئاً طبيعياً وضرورياً، سواءً أتى هذا الحديث شوفينياً أو غير شوفينى ، من هنا جاءت الحاجة إلى كتاب عن شخصية مصر ، كتاب غير مسبوق إليه ، صحيح أن ثمة مقدمات ، تبدأ بالعقاد وتنتهى بحسين فوزى لكنها كانت كتابات أحادية الجانب ، لأدباء ومؤرخين ، كتبوا عن أشياء وأغفلوا أشياءً . ومن واقع ظروف جديدة طرأت ، يأتى هذا الكتاب « شخصية مصر » ويأتى هذا الكاتب « جمال حمدان » تتويجًا لمرحلة سلفت ، وبدايةً موفقةً لمرحلة جديدة بدأت .

وبطبيعة الحال ، فإن الحاجة للكتابة عن شخصيات الشعوب ، تستمد تبريرها ـ جزئيًا ـ من النكبات التى تصاب بها هذه الشعوب (قارن فيشته ونداءاته إلى الأمة الألمانية) . وتقديرى أن هذا الكتاب ، وإن فرغ المؤلف من كتابته قبيل أحداث يونيو مباشرة ، إلا أن هذا لا ينفى أن ثمة سحابات سوداء كانت تلوح عند الأفق ، وأتت الطبعة الثانية ، امتداداً لتأثير النكبة بعد أن جاوزت الأفق إلى الواقع .

أخيراً فإن الحديث عن الشخصية الوطنية نتيجة طبيعية وضرورية

---

* مقال نشر بمجلة الفكر المعاصر العدد ٦٥ . يوليو ١٩٧٠ .

للفكر الجغرافى فى أعلى مراحله ، أى الفكر الجغرافى بامتياز ، وهو « **الجغرافيا الإقليمية** » التى تجاوز الطابع السكونى لهذا العلم ، وتنشىء علاقات حميمة بينه وبين الواقع حوله ، الهدف توصيف هذا الواقع ، ثم المشاركة فى تغييره بعد ذلك .

- 1 -

وقد يتصور القارئ أننى سوف اتقدم بملخص لهذا الكتاب ، تضاف إليه عبارات تدشين هنا وهناك ، لكننى حين اكتب عن حمدان ـ وقد كتبت عنه غير مرة ـ لا أقصد أن اكتب عنه كشخص، وإنما أقصد أن اكتب عنه كظاهرة ، والخطيئة الكبرى التى يقع فيها معظم كتابنا أن أحكامهم تأتى فى النهاية ذاتية . صحيح إنه لم يخلق بعد من يستطيع أن يتجرد من أوهام بيكون ، لكنه من الممكن أن يخلق من يبتعد أميالاً عن هذه الأوهام .

إن كتاب « **شخصية مصر** » هو أنضج محاولة لتعرف الشخصية المصرية ، منذ أن بدأت هذه المحاولات . وأنا حين انقل فقرات من هذا الكتاب ، أو أحاول عرض رأى أتى به المؤلف ، أجد مشقةً كبيرةَ ، من حيث حجم المعلومات الموجودة وكثافتها وعمقها ومن حيث التنقل ، لا أقول بين فروع الجغرافيا فحسب ، وإنما فروع الإنسانيات عامة ، مع استعارة لغة الفلسفة ... هذا كله يدعمه بناء قوى للعبارة ، يضيف إلى صفة المفكر عنده صفة الفنان ، بحيث إننا نجد فى المؤلف نمطاً

عقاديًا جديدًا ، أو إننا نجد فيه مفكرًا أضاف ، لادارسًا جمع وبوب ولم يأت بجديد .

والكتاب محاولة لتفسير الشخصية المصرية فى إطار بعدين أساسيين هما « **الموضع** » و « **الموقع** » أو إن شخصية مصر هى محصلة هذين البعدين والعلاقة بينهما .. ولنترك المؤلف يشرح هذه النظرية ، لأن على أساسها يقوم الكتاب كله .

« والنظرية العامة التى نقدم فى تفسير هذه الشخصية الفلتة ، هى التقابل – ائتلافًا أو اختلافًا – بين بعدين أساسيين فى كيانها ، هما الموضع Site والموقع Situation ، فالموضع نقصد به البيئة الطبيعية بخصائصها وحجمها ومواردها فى ذاتها ، أى البيئة النهرية الفيضية ، بطبيعتها الخاصة وجسمها المادى بشكله وتركيبه ... إلخ، أما الموقع فهو صفة نسبية تتحدد بالنسبة إلى توزيعات الأرض والناس والإنتاج حول إقليمنا ، وتضبطه العلائق المكانية التى تربطه بها . الموضع خاصية محلية داخلية ملموسة ، ولكن الموقع فكرة هندسية غير منظورة » .

- 2 -

فى إطار هذه النظرية تتحدد أبعاد الشخصية المصرية ، أولاً فى **«التجانس والوحدة»** ، عبر المكان والزمان ، حتمته ظروف الموضع

وعموده الأساسى النيل ، فحدث نتيجةً لهذا الإنسجام فى التركيب العرقى ، لأن مصر تعرضت للغزوات الحربية فى الغالب ، وليس للهجرات البشرية ؛ من هذه الهجرات الهجرة العربية ، التى هى فى الحقيقة « زواج بين أقارب بعيدين » وقد لعبت الصحراء إزاء هذه الهجرات دور **«ماصة الصدمات»** كما إنها ساعدت على تبلور الشعور بالذات وطنياً .

ويتصل هذا البعد ببعد آخر وهو **المركزية** ، فإن ضيق مساحة المعمور أدى إلى خلق « **مركز بؤرى** » ــ بين الصعيد والدلتا ــ فى القاهرة أو منطقة القاهرة ، التى أصبحت مركز الثقل السياسى والحضارى معًا ، وكان معنى سقوطها سقوط مصر كلها ، وتجمعت بالقاهرة إدارة البيئة الفيضية ، من تكنوقراطين تستوعبهم جماعة من البيروقراطيين ، ورخاء مصر أو عدم رخائها مرتبط بنوعية هذه البيروقراطية ، التى حددت فيما بعد شكل البرجوازية ــ عندما أتى عصرها ــ فهى برجوازية موظفين لا تجار .

والبعد الثالث ، **هو تعادل الموضع والموقع فى أحوال القوة ، وتخلف الموضع عن الموقع فى أحوال الضعف** ، فعندما كان الصراع العالمى ــ قديماً ــ يدور فى معظمه بين الرمل والطين ، استطاعت مصر أن تصبح « قوةً طاردةً سياسية » وأن يكون لها ثقلها الدولى المرموق . ولكن عندما تحول الصراع إلى صراع بين البر والبحر ، واتسعت دائرة

المعمورة ارتفعت أهمية موقع مصر ، وأصبحت « قوةً جاذبةً سياسية » وسيطر القول « وهى لمن غلب » .. والاتجاه الحاضر لإعلاء الموضع (السد العالى ـ التصنيع) ، سوف يختصر المسافة بين الموضع والموقع .

والبعد الرابع هو « **التوسط والتوازن** » والمقصود بالتوسط هنا ليس الجمع بين متناقضات على نسق ، وإنما يعنى أن مصر تكونت تاريخيًا وسطًا فى حدود متجانسة ... فهى طبيعيًا تكاد تتوسط كتلة اليابس القديم وكتلة المعمور ، وهى متوسطة الحجم بالمقياس العالمى مساحةً وسكانًا وثروة ، الغطاء الزراعى يجمع بين المعتدلات والموسميات ، تكاد لا تعرف غير فصلين اثنين فى العام ، وهى بشريًا جمعت تركيبًا من عدة بيئات ، تجاورت لديها حضارة الشرق وحضارة الغرب ، وتمازجت داخلها الصفات الجنسية للأجناس الثلاثة الرئيسية فى العالم القديم بكل نسب القهوة واللبن ، تاريخيًا شهدت عصر الإمبراطورية ، كما شهدت عصر الإستعمار ، وغيرها شهد أحدهما فقط ... أخيراً هى دولة نامية وليست دولةً متخلفةً ... هذا كله أدى إلى أن تتوازن فى شخصيتها ، لا يتطوح اتجاهها نحو عنصرية ولا طائفية ، لا ترفض الجديد، وإنما تختار ما يناسبها .

« إن ملكة الحد الأوسط هى بوضوح فيما نأمل الآن ، كلمة المفتاح والدليل فى شخصية مصر الحضارية ، وفى مواجهتها للجمع والتوفيق بين الماضى والحاضر ، بين المحلية والعالمية ، بين الأصالة والمعاصرة ، وبين التراث والاقتباس » .

والبعد الخامس أن لمصر أربعة أبعاد (**جزئية**) **حضارية وسياسية** ، آسيوى وإفريقى على مستوى القارات ، ونيلى ومتوسطى على مستوى الإقاليم ، والبعد الآسيوى هو أهم هذه الأبعاد ، فالنيل لا يجرى فى منتصف الصحراء ، لكنه ينحاز إلى الشرق ، والدلتا مفتوحة إلى سيناء، الأمر الذى يجعل مصر جزءاً من الضلع الغربى « **للحلقة السعيدة** » وتشمل حواف الجزيرة العربية والعراق والشام ، على أن البعد الإفريقى (والنيلى) يغلب عليه الإرسال الحضارى ، والبعد المتوسطى يغلب عليه الاستقبال الحضارى ... لكن البعد الآسيوى (العربى أساساً) هو إرسال واستقبال معا حضارةً وسياسةً وتاريخاً .

والبعد السادس ، **هو الاستمرارية فى تاريخ مصر وفى شخصيتها** ... هذه الاستمرارية موجودة فى الخصائص المادية للحضارة (المرتبطة بالنيل) ، والإنقطاع موجود فى الخصائص اللامادية لتلك الحضارة ، فثمة تطورات حدثت للحضارة فى مصر ، لكن ترامى « الوراء التاريخى» جعل هذه التطورات غير متعارضة ، على أن التعريب والإسلام ، أهم وأخطر التطورات التى حدثت ، ويبدو أثره بوضوح فى الجوانب اللامادية ، وهو الذى جعل مصر جزءاً من العالم العربى وأحد أقاليمه السياسية .

تتصل هذه الأبعاد أو إنها تؤدى بالضرورة إلى بعد هام وأساسى فى شخصية مصر وهو **العروبة** ؛ فمصر جزء من منطقة عربية واحدة ،

أحدث بها الجفاف ابتعادات جزئيةً ، لا تمنع من أن تكون البلاد العربية كلها بيئة متوسطية ، وأن تصبح مصر والعراق والمغرب « **نظائر جغرافية** » ... كما إن الوحدة السياسية لا تأتى بالضرورة من الوحدة الطبيعية ، وإنما من الوحدة البشرية ، وهى متوافرة عند العرب .

دينياً وتاريخياً ... العرب أولاد العراق (إبراهيم) ومصر (هاجر) ، ثم هناك التأثيرات السامية فى اللغة المصرية القديمة ، وهناك أيضًا الهجرة العربية ، التى جعلت العرب هم الأب الاجتماعى لمصر فى الدرجة الأولى ، والأب البيولوجى فى الدرجة الثانية .

إن أعظم أمجاد مصر تحققت فى إطار العروبة ... معارك صلاح الدين وقطز وبيبرس أعظم من معارك تحتمس ورمسيس ، والتوسع الفرعونى لم يصل ـ فى مساحته ـ إلى توسع القرن التاسع عشر .

وإذا كانت مصر عربية ، فهى أيضًا زعيمة العرب ، أهلها لهذا ضخامة الحجم والتجانس واستيعابها لعينات من كل قطر عربى ، سبقها إلى الحضارة الحديثة ، موقعها بين آسيا العربية وإفريقيا العربية ، لا حدود لها مع غير العرب ، تصديها للصليبيين والمغول ... ثم إسرائيل.

مصر بين العرب ، أولوية بين اكفاء ... العرب بغير مصر ، هملت بغير الأمير .

« ليس دور الزعامة الجغرافية ادعاءً فظًا غليظًا ، وإنما ممارسة متواضعة صامتة ، وهو بهذا لا يمكن أن يكون تشريفًا أو تخليدًا ، بل هو تكليف وتقليد ... تكليف من الجغرافيا ، وتقليد من التاريخ، إنها ليست أبهةً أو نعرةً سياسيةً ، بل مسئولية فادحة تفرضها الطبيعة » .

- 3 -

تمضى ثلاث سنوات وتصدر الطبعة الثانية من هذا الكتاب ليصبح ضعفى حجمه ويزيد ونجد أن المؤلف أضاف خمسة فصول ؛ فالفصل الخاص « بالتجانس والوحدة » ، أصبح فصلين بعنوان «التجانس الطبيعى والمادى» و « التجانس البشرى والوحدة السياسية » ، ثم أربعة فصول جديدة ، نستطيع أن نجد مقدمات لها فى كتابات أخرى للمؤلف ، أوفى هذا الكتاب ؛ هذه الفصول هى **شخصية مصر الإستراتيجية ، شخصية مصر الاقتصادية ، سكان مصر ، التوسط والتوازن** ، وجميعها تغطى مساحة تقرب من ثلث مساحة الكتاب .

بطبيعة الحال فثمة تعديل حدث فيما يختص بالفصول القديمة ، وهذا ليس شيئًا جديدًا ، كما إنه ليس عيبًا وإنما أريحية العالم ، فمن كبار المفكرين من عدلوا أفكارهم ، أو إنهم عدلوا عنها ، فالجزء الأخير من دراسة توينبى التاريخ ـ من إحدى الزوايا ـ مراجعة لبعض الأفكار التى وردت فى دراسته الهامة والخطيرة ، ومع هذا فقد نال توينبى ما يستحقه من تقدير .

فإذا انتقلنا إلى حمدان نجده وإن أعاد ترتيب فصول الكتاب ، إلا أن الأفكار الأساسية ماتزال هى هى ، بل إنه استخدم العبارات نفسها ، حذف القليل وأضاف الكثير ، لكننا نستغرب أن يحذف المؤلف ـ أحياناً ـ بعض العبارات ، مثلما حدث فى الفصل الخاص بالإقطاع ، مع انتفاء المبرر لهذا الحذف ، لأن الأفكار نفسها لم تتغير.

فى الطبعة الأولى يقول المؤلف « لا يعرف تاريخ مصر من ينكر أن الطغيان والبطش من جانب ، والاستكانة والزلفى من الجانب الآخر ، هى من أعمق واسوأ خطوط الحياة المصرية عبر العصور ، فهى فى الحقيقة النغمة الحزينة الدالة فى « دراما التاريخ المصرى » ... وفى الطبعة الثانية يقول المؤلف « لا يعرف تاريخ مصر الاجتماعى من ينكر أن الطغيان أو الاستبداد الباطش أحياناً ، هو كظاهرة واقعة موضوعياً ، وبعيداً عن كل تفسير شخصى أو تنظير نغمة أساسية فيه ودالة عليه » .

وتقديرى أن العبارة الأولى كان يجب أن تأتى كما هى ، لأن الكتاب فى الطبعتين تصديق لها من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الطغيان وبصرف النظر عن أى اجتهاد ـ كان النغمة الأساسية دائماً ولا نقول أحياناً ، وهى النغمة بل الإيقاع العام الذى يجمع بين عصر ابن آمون وعصر أفندينا .

ولننتقل إلى الأبعاد الجديدة الثلاثة التى أضافها المؤلف إلى كتابه فى طبعته الثانية ، ولنبدأ بشخصية مصر الاستراتيجية ، فقد حددها

المؤلف باجتماع موقع خطير وموضع ضخم ، وما ترتب عليهما من قوة بر وقوة بحر ، أيضًا العمق الاستراتيجي والحماية الطبيعية ، بحيث تبدو مصر كنواة مغلفة بشرنقة ضخمة متعددة الطبقات والعقبات .

على أن الموقع والموضع معًا جعلا مصر تنتهج طوال تاريخها سياسةً دفاعية ، حتى حين كونت إمبراطوريةً مترامية ، وجعلاها فى الوقت نفسه مطمعًا لأنظار الغزاة ، لكن هذا لا يعنى بالنتيجة أنها «أطول مستعمرة» لأن ترامى «الوراء التاريخى» هو الذى يوحى بذلك، فى حين أن فترات الاستقلال أطول من فترات الاحتلال ، كما إنه ليس صحيحًا أيضًا أن الشعب المصرى شعب صانع فحسب (حسين فوزى) ... إنه شعب صانع ومحارب فى الوقت نفسه» .

« والحقيقة أن مصر كانت دائمًا شعبًا محاربًا ، بقدر ما كانت شعبًا بناءً ، وكان المصرى قديمًا وحديثًا هو الإنسان المحارب كما كان الإنسان الصانع ، فلقد فرض الموقع المتحدى أن يصبح الشعب المصرى هو الشعب المقتحم مثلما فرض عليه أن يكون الشعب اليقظ الواعى للعالم المحيط ، أى إننا كما جعلنا الموضع ـ النهر ـ شعبًا بناءً صناعته الحضارة ، فإن الموقع الحساس جعلنا وبنفس القوة والضرورة شعبًا محاربًا مقاتلاً وظيفته الدفاع » .

إن مصير الإمبريالية العالمية ومصير العالم الثالث يتحددان معًا بمصير الصراع بين مصر وإسرائيل . والصراع هنا مسئولية وطنية ، من

حيث أن الأخطار التى تتهدد مصر تتهددها دائمًا من الشرق ، ومن حيث أن الخطر الصهيونى ينحرف جنوب الخطر الصليبى فيفصل مصر عن العرب ، ويهدد مواصلاتها وعمران قناتها ، ويوشك أن يسرق موقعها ، ولكن الأهم مسئولية مصر الفادحة فى زعامة العروبة .

يناقش المؤلف بعد ذلك قضية هامة هى أحادية الاقتصاد المصرى ، وتلك حقيقة واقعة بالتاريخ ، يتجاهلها البعض ، ويهملها البعض الآخر بحجة إنها ميراث استعمارى ، فبعد أن يأتى بشواهد عديدة على هذه الأحادية ، يؤكد إنها فى داخلها احادية زراعية ، لأن القطن هو مادة الزراعة الأساسية ، وعدا هذا تصبح الصناعة ـ أو إنها كانت ـ حرفة تكميلية ، أما التجارة فدورنا فيها كان أشبه بدور الوسيط منه بدور التاجر .

هل من الممكن تثوير هذا الواقع ؟؟

يعتقد المؤلف أن التثوير محدود إذا نحن نظرنا إلى الزراعة وحدها ، لإنها عندنا كثافة قبل أن تكون مساحة ، وإذا كانت مشكلة الزراعة فى الماضى هى الماء ، فإن مشكلتها فى الحاضر هى الأرض ، وغاية ما سوف يصل إليه التوسع الأفقى لن يتجاوز بها عشرة ملايين فدان ، لأننا سوف نصطدم بالجيولوجيا وليس بالجغرافيا ، البديل هو التوسع الرأسى ، أى اثراء التربة ، وجعل الطين للزراعة والرمل للعمران ، وأخيراً التخصص الإقليمى .

ولكن التثوير الحقيقى يأتى من الموقع لأن هناك أقطاراً أخرى أغنى من مصر فى الموضع ، لكننا قد لا نجد أقطاراً أخرى أغنى منها فى الموقع ... إن مصر تستطيع أن تصبح « يابان إفريقيا » عندما تستورد الخامات وتصنعها فى الداخل ، ثم إنها تستطيع أن تصدر العمل ، أى تستثمر كثافة السكان ، كما يجب الاهتمام بالتجارة والسياحة والخدمات ، وهو اتجاه يبرز عند دول أخرى كثيرة ... وفضلاً عن فائدته الاقتصادية ، سوف يؤدى إلى انفتاح مصر على العالم حولها .

« وخلاصة القول إن الموارد الطبيعية ليست معطيات صماءً من الطبيعة ، وإنما تقييمات حضارية ، وليس ثمة موارد طبيعية ، ثم أساساً مواهب إنسانية ، أو على الأقل فإن التنمية الاقتصادية والإنتاج والتقدم هو حاصل ضرب الموارد الطبيعية فى المواهب الإنسانية ، وعلى أبناء مصر إذن أن يسخروا كل مواهبهم ، حتى تسخر مصر لهم كل مواردها ، لا سيما أن ظروف مصر الخاصة من تخلف متراكم وتحديات متربصة تجعل من التقدم شرط البقاء بل البقاء نفسه » .

فإذا انتقلنا إلى السكان نلاحظ ـ علميًا ـ ودون الالتزام بالمبالغات، أو النصوص المتواترة ، ومع الاعتراف بذبذبات عنيفة من نمط « الشدة المستنصرية » ، نلاحظ أن سكان مصر قبل الرى الدائم (محمد على) كان عددهم يدور حول العشرة ملايين ، باعتبار قدرة الأرض فى تحميل السكان ، وباعتبار أن مصر بلد تعرضت للغزوات

ولم تتعرض لهجرات مؤثرة (عدا الهجرة العربية) ... والحادث الآن ثورة ديموغرافية ، فاقت إمكانيات الموضع ، والتهمت دخل قناة السويس ، وتهدد بالتهام دخل السد العالى .

إذن ما الحل ؟

يعتقد المؤلف أن عدالة التوزيع ليست تكفى وحدها ، لأنها قد تعنى العدالة فى توزيع الفقر ، أما زيادة الدخل القومى ، فهى محدودة بالإمكانيات المتوافرة من موارد ومواهب ، الحل يكمن جزئيًا فى الهجرة التى يصفها بأنها « انطلاقة كبرى فى اللحاق بالعصر والعصرية والعالم المعاصر البالغ الدينامية والسيولة » ... لكن الأهم هو ضبط النسل ، وهو أمر لا تمنعه الديانات ولا الفلسفات المادية .

تلك هى الأبعاد الرئيسية فى « شخصية مصر » تتضح الصورة أمامنا .. لونها المؤلف بفرشاته « **فرعونية هى بالجد ، عربية بالأب ، ثم إنها بجسمها النهرى قوة بر ، ولكنها بسواحلها قوة بحر ، وتضع بذلك قدمًا فى الأرض ، وقدمًا فى الماء ، وهى بجسمها تبدو مخلوقًا أقل من قوى ، ولكنها برسالتها التاريخية الطموح ، تحمل رأسًا أكثر من ضخم ، وهى بموقعها على خط التقسيم التاريخى بين الشرق والغرب، تقع فى الأول ، ولكنها تواجه الثانى ، وتكاد تراه عبر المتوسط . كما تمد يدًا نحو الشمال ، وأخرى نحو الجنوب. وهى توشك بعد هذا كله أن تكون مركزًا مشتركًا لثلاث**

دوائر مختلفة ، بحيث صارت مجمعًا لعوالم شتى ، فهى قلب العالم العربى ، وواسطة العالم الإسلامى ، وحجر الزواية فى العالم الإفريقى .

- 4 -

نناقش بعد ذلك قضية الجغرافيا والحتم الجغرافى ، وهى قضية هامة لأن كل نقاد حمدان يعزفون عليها ، ثم إنه لن يتسنى فهم حمدان فى « شخصية مصر » ، وحمدان فى كتبه الأخرى ، دون أن نفهم هذه القضية أولاً ، وموقعها فى فكره ثانياً .

يتساءل البعض ... ولماذا الجغرافيا ... ما لها والشخصية الوطنية ؟

قرأنا هذا الكلام وسمعناه حين صدور الطبعة الأولى ، وأحسب إن هذا التساؤل ما يزال قائمًا . وللإجابة عليه نقول ويقول المؤلف إن الجغرافى « يضرب بحرية فى كل العلوم ، يربط الأرض بالناس والحاضر بالماضى والمادى باللامادى والعضوى بغير العضوى ، ويكاد يتعامل مع كل ما تحت الشمس وفوق الأرض ، كل أولئك وهذا تحفظ شرطى ، من خلال وجهة نظر موحدة وصارمة هى الإقليم والفكرة الإقليمية » .

إذن فإن الجغرافيا تصبح مدخلاً لدراسة الشخصية الوطنية ، وإزاء حالة كمصر ، فإن تأثيرها يفوق تأثيرها فى بلاد كثيرة غيرها لأنها

« **فلتة جغرافية** » بتعبير حمدان موضعًا وموقعًا ، موضعًا لأن النيل هو مصر ، ولم يخطىء أحد مقولة هيرودوت ، وموقعًا لأن مصر هى عاصمة العالم القديم ، وهى الآن عاصمة العالم الثالث ، وعاصمته بامتياز .

يقول المؤلف « والذى نراه هو إننا إزاء حالة نادرة من الإقاليم والبلاد ، من حيث السمات والقسمات التى تجتمع فيها ، وكثير من هذه السمات تشترك فيه مصر مع هذه البلاد أو تلك ، ولكن مجموعة الملامح ككل تجعل منها مخلوقًا فريدًا فذًا حقيقةً . فهى بطريقة ما تكاد تنتمى إلى كل مكان ، دون أن تكون هناك دائمًا ، فهى بالجغرافيا تقع فى إفريقيا ، ولكنها تمت إلى آسيا بالتاريخ ، وهى متوسطة دون مدارية بعروضها ، ولكنها موسمية بمياهها وأصولها ، وهى وإن كانت أصلاً موسمية فى مصدرها ، فقد أصبحت موسميةً دائمًا وأخيرًا ، على ما فى التعبير من تناقض ، هى فى الصحراء وليست منها، إنها واحة ضد ـ صحراوية ، بل ليست بواحة وإنما شبه واحة هى » .

ولكن هل يعنى هذا فى التحليل النهائى أن ثمة حتمًا جغرافيا ؟ .. لقد تصور البعض منطلقين من فكر معين ـ أن حمدان يقصد « أن الذى يحدد النظام الاجتماعى فى إقليم من الأقاليم هو طبيعته الجغرافية ، متجاهلين بذلك عناصر أخرى ، قد تكون أكثر بروزًا ، مثل

الصراع الطبقى ، وبالتالى نصل لى نظرية سكونية فى التاريخ ، تثبت فيها النظم الاجتماعية ، ثبات الطبيعية الإقليمية ، وبالتالى لا نتوقع تغييرات اجتماعية ، إلا كلما حدث تغيير فى الطبيعة الجغرافية » [١] .

بيد أنه ليس معقولاً ولا مقبولاً أن يأتى أحد ـ حمدان أو غيره ـ بحتمية جديدة ، لأن عصر الحتميات ولى منذ سنين ، ثم إنه ليس معقولاً ولا مقبولاً أيضًا أن نعامل فكرًا معينًا من منطلق فكرى آخر ، وإنما المعقول والمقبول معًا أن نتعامل مع أى الفكرين بمنطق يعقله ويقبله الفكران معًا .

إن حمدانًا لا يقول بالحتم الجغرافى ، فقط يقول بالحسم الجغرافى، وإنكار هذا الأخير إنكار للسببية العلمية برمتها « وعندنا باختصار أن الجغرافيا عامل هام فى تفسير الحياة والحضارة والتاريخ فى مصر ، ولكنها بالتأكيد ليست العامل الوحيد ، وليست العامل الأهم بالضرورة ، وسيرى القارئ بالفعل أن بعضًا من غير الجغرافيين أكثر قربًا من الجغرافيين إلى السببية الجغرافية ، بل وأحيانًا إلى الحتم الجغرافى نفسه » .

فى التطبيق ونعود إلى الطغيان لأنه أحد العوامل المؤثرة والضاغطة فى تكوين مصر .. ولأنه المثال الصارخ الذى يلوح به دائمًا نقاد حمدان .

---

(١) من مقال للأستاذ أحمد عباس صالح فى نقده لشخصية مصر .

إن حمدانًا لا يقول إن الطغيان كان حتمًا جغرافيًا ، وإنما يقول إنه مرحلة فى تاريخ البشرية ، تشترك فيه مصر مع غيرها من الأقطار ، من حيث إنه كان روح العصر ، ولم يكن روح المكان ، أما لماذا كان أوضح فى مصر وأزمن أيضاً ، فإن السبب يكمن فى طبيعتها الجغرافية، يقصد أن البيئة النهرية الفيضية ، فرضت وجود حكومة مركزية قوية ، تهيمن على وسائل الإنتاج ، أى تنظم العلاقة بين الناس والنيل (وليس المقصود بالنيل هنا الزراعة وإنما المقصود الموضع) . وهذه فرضية فى الجغرافيا الطبيعية ، لا ترتبط بالضرورة بنظام اجتماعى معين، لأن الزراعة فى مصر زراعة رى ، وليست زراعة مطر .

من شأن هذه الفرضية أن تؤدى إلى الاشتراكية التعاونية بالتحديد، وليس إلى الفردية العارمة كما شاهدنا فى أقطار أخرى ، لكن الذى حدث هو أن الحاكم استغل هذه الفرضية كوسيلة للطغيان ومبرر له فى الوقت نفسه ، وجاء إهمال الموقع وما ترتب عليه من غزوات خارجية ، ليتأكد الطغيان ونسله فى سلسلة طويلة من الأفعال وردود الأفعال مع إيقاع الحياة البطئ داخل شرنقة الوادى .

إذن فثمة أسباب أخرى للطغيان نبحث عنها خارج الجغرافيا وخارج النهر ، ويصبح « الطغيان ومركبه هنا حقيقة بالفعل لا بالقوة ، وهذا بالدقة مفتاح الحقيقة العلمية ، إنه حقيقة بالتاريخ لا بالجغرافيا ، وظاهرة تراثية لا وراثية ، موقوتة مهما طالت » .

وإذا لم يكن هناك حتم جغرافى فى مسألة الطغيان ، فالذى لا شك فيه أن هناك عوامل أخرى أساسيةً ، تلعب دورها فى رسم أبعاد الشخصية الوطنية ، فقد كان قمينا بمصر (الموقع) أن تلعب دوراً تجارياً وبالنتيجة صناعيًا ، لا أن تكتفى بأن تلعب دور الوسيط ، لكن الذى حدث غير ذلك ، وهو أمر لا تفسره إلا عوامل أخرى خارج الجغرافيا وخارج النهر أيضاً .

العوامل السكونية إذن لا تحدد وحدها الطابع العام للشخصية الوطنية ، من هذا وعليه فمن الممكن أن تتغير هذه الشخصية فى الدرجة والنوع ، وواضح أن مصر الآن تتغير ، وهذا التغيير يمس أسباب الحياة المادية وغير المادية وهى كثيرة ، ومن شأنه أن يعكس تأثيره على الشخصية الوطنية ذاتها ... والمؤلف نفسه يؤكد « أن مكانتنا هى محصلة مكاننا وإمكانياتنا على حد سواء » .

إن ملامح الشخصية المصرية ليست كلها ملامح مضيئة ، وليس تاريخها كله تاريخاً مضيئاً ، هذه حقيقة بدهية تسرى على مصر ، كما تسرى على أقطار أخرى ، بل الأقطار الأخرى ، والطبيعى بل الواجب، أن نناقش هذه الملامح السلبية قبل الإيجابية ولا نهملها استعلاءً أو انطلاقًا من حتمية التطور التاريخى ، لأن تلك ميكانيكية مرفوضة ، وتقديرى ــ وقد مررنا بنكسة محزنة ــ أن نختلف حولها ، لا أن نكتفى بمجرد الحوار ، نختلف أكثر من أن نتفق ، نبحث عن حل لها ،

وحمدان فى توصيفه بدأ الرحلة وعلينا نحن أن نتابعها .

....

ليس سهلاً أن نصدر حكمًا على كتاب وليس سهلاً أيضًا أن نصدر حكماً على كاتب ، لكنه بين حملة الصخب وحملة الصمت، يبقى هذا الكتاب وهذا الكاتب علامةً هامةً على الطريق إلى الشخصية المصرية ، وعلامةً هامةً أيضًا على الطريق إلى فكر مصرى معاصر ... وتلك جائزة الكتاب والكاتب .



جمال حمدان ... وذكريات معه (*)

كانت البداية قبل سنوات بعيدة فى عهد الصبا ، حين دلف إلى المدرج الكبير بكلية الآداب شاب فى الثلاثين أو نحوها ، علمنا أنه سوف يدرس لنا مادة الجغرافيا .

كانت الفكرة الشائعة عندى ـ وعند غيرى ـ أنها مادة جافة عصية على عقولنا الصغيرة ، وزاد من ذلك أن الكتاب الذى قرره هذا الأستاذ صغير فى حجمه ، لكن كلماته اختيرت بعناية ، وليس من اليسير استظهارها .

لأمر استغربه استطعت ـ وغيرى ـ اجتياز صعوبة هذا الكتاب ، وصرت أقبل على محاضرات هذا الشاب ، لا أتخلف عن واحدة منها، ورغمًا عن تخصص غير التخصص صار هذا الأستاذ أقرب الأساتذة إلى نفسى .

يترك حمدان الجامعة ، أو تتركه الجامعة ، وذات يوم التقيت به ، وكم كنت سعيداً ، حين وجدته سعيداً بلقاء أحد تلامذته ، ونشأت بيننا علاقة امتدت لسنوات .

(*) مقال نشر فى الأهرام (الدولى) بتاريخ ٣ من مايو ١٩٩٣ ، كما نشر فى الأهالى بتاريخ ٢ من يونيو ١٩٩٣ .

صرت اختلف إليه فأمضى معه ساعات وساعات ، لا أحس خلالها بزمن ، وهو يجتاب معى آفاقًا رحبة وعوالم خصبة ، وأنسى - ربما أنسى - إلى أى تخصص ينتمى .

ذكرتنى جلساتى مع هذا العبقرى بجلسات أخرى مع عبقرى آخر ... العقاد .

تقطعت الجلسات ثم انقطعت . بعد أن علا السياج بين حمدان وبين ما هو خارج حمدان .

عجيب أمر هذا الإنسان .. تجرد من متاع الدنيا جميعه . لا زوج ولا ولد ، ولا عمل ثابت ولا مورد سوى كتبه ومقالاته . وعاش حياة متواضعة . فى شقة أكثر من متواضعة ، قريبة من الجامعة ، حبيبته التى غدرت به .

كان يسيراً أنه يبحث عن نفسه خارج الجامعة ، بل خارج الوطن، وسنحت الفرصة غير مرة ، بل إنها كانت تلهث وراءه ، فى زمان صار الكثرة يلهثون وراء النفط .

لكنه كان نسيج وحده ، آثر أن ينصرف عن دنيانا هذه الرديئة إلى دنياه التى أحب ، ورغماً عن موارد مادية محدودة ومتاعب صحية كان يعانى منها ، إلا إنه أدار ظهره لكل شىء .

ربما كان في هذين البيتين للعقاد تعبير دقيق عن رجال من نمط العقاد ومن نمط حمدان .

فاختر لنفسك إما المجد في خطر أو الهوان وقد تشقى ببلـواه

وما اختيارك إلا ما خلقـت له إن الطبائع ما ترضاه نرضـاه

عاش حمدان في عزلة .. لكنها عزلة رائعة . كنت أعلم حقيقة المحنة التي مر بها ، لكنه كان يتحاشى دائمًا الحديث عنها ، وحين كنت اتطرق إليها ، يرد بعبارات مقتضبة لا تشفى الغليل ، وألح عليه ، فيرد بأنه لولا هذه المحنة ، وما أسفرت عنه من عزلة ، ما كتب **« شخصية مصر »** .

كان عزوفًا عن الناس ، شديد الاعتداد بنفسه ، راهبًا متبتلاً في محراب العلم .

اذكر أنه قال لي يومًا : إن حصوله على الجائزة التشجيعية لم يكن لتميز كتابه « دراسات في العالم العربي » ، وتمايزه ، ولكن لتزكية أستاذه سليمان حزين .

أما الجائزة التقديرية ـ وقد هنأته عليها ـ فإنه رفضها .

وعندما كانت مجلة « **الفكر المعاصر** » بسبيل إصدار عدد عن الشخصية المصرية ، كلفتني بأن أجرى حديثًا معه ، لكنه ـ وهو

المتخصص فى هذه الشخصية ـ اعتذر اعتذاراً رقيقًا . وعندما استأذنته ليشارك مع الأستاذ أحمد عباس صالح ومعى فى مناقشة كتابه الأشهر بإذاعة البرنامج الثانى تكرر اعتذاره .

لكنه مع هذا العزوف وهذا الاعتداد ، كان بسيطاً غايةً فى البساطة، فنانًا إلى أطراف أصابعه ، كريماً إلى أبعد مدى متصور ، رقيق الحاشية ، يخجل من الاطراء ، وكم كنت أحس بالحرج ، حين أقطع عليه خلوته ـ وهو الذى نظم وقته بصرامة ـ لكنه كان يتلقانى ـ دائما يتلقانى ـ وقد علت وجهه ابتسامة بشوش .

وحين كتبت عن « شخصية مصر » فى إصدارتها الثانية ، وكان فى بعض ما كتبت نقدات ، رأيتها فى هذا الكتاب . فإنه تقبل هذه النقدات بروح طيبة .

مات حمدان .. ونتساءل ماذا يبقى من حمدان . ؟

يبقى من حمدان نموذج رائع لعالم احترم نفسه واحترم علمه ، وجعل هذا العلم قيمةً ، لا تعلوها قيمة ، لا يهمه بعدها أى شىء . ولا يهمه كل شىء .

ويبقى من حمدان أنه حول الجغرافيا من حقائق إلى أفكار ، وصعد بها إلى أعلى مراحلها .. شخصية المكان ، وهى جماع ما ينبئ

عنه المكان . وصاغ هذه الأفكار بإسلوب راق ومتميز ، يصعب معه أن تحذف كلمةً من عبارةً ، ولا عبارة من سياق .

ويبـقى من حـمـدان إنه فى ابتـعـاده عن عـالمنا هذا الردىء إلى صومعته المتواضعة ، كان شديد الاقتراب من مصر ، وطنه الذى أحبه حباً ملأ عليه حياته ـ كل حياته ـ وكتبه جميعها وواسطتها شخصية مصر ، كان يصدر فيها عن هذا الحب ، وترتبط بقضايا وطنه ومشاكله الكبرى .

كان الهم العام يكمن وراء كتب حمدان .

ويبقى أن نكرم حمدان فى مماته .. نحن الذين صدفنا عن تكريمه فى حياته .



شخصية مصر والطغيان في فكر جمال حمدان*

يحفل فكرنا المصرى فى القرن الأخير بكوكبة من الأسماء الكبيرة، ما تزال تعيش بيننا بأفكارها الباقية الكبيرة .

بين هؤلاء المفكرين الكبار مفكر كبير هو **جمال حمدان** (١٩٢٨ ـ ١٩٩٣) عاش فى صمت ، ورحل عن دنيانا فى صمت ، وبين صمت وصمت ملأ الدنيا وشغل الناس .

نشر حمدان نحواً من عشرين كتاباً ، لكن عمل حياته هو **«شخصية مصر»** .

صدرت طبعته الأولى (١٩٦٧) حين كان هناك أمل ، وصدرت طبعته الثانية (١٩٧٠) حين ذوى الأمل ، وصدرت طبعته الأخيرة (١٩٨٠ ـ ١٩٨٤) حين صارت خشية من ضياع الأمل .

والكتاب ملحمة شجية فى حب مصر ،فوسط أجواء الركاكة التى رانت على حياتنا فى العهد الأخير ، يبزغ هذا الكتاب شهاباً ، لكنه لا يحترق ، يظل مضيئاً بعد انقضاء الكتاب وقضاء الكاتب .

أثار الكتاب ضجةً عقيب صدوره فى طبعته الأولى ، ثم فى طبعتيه التاليتين ، وأكبر نقد وجه إليه هو تحليله للعلاقة بين الشعب

---

* بحث قدم إلى « مؤتمر المصريين والسلطة عبر عصور التاريخ » المنعقد بالمجلس الأعلى للثقافة فى مارس ٢٠٠٠ ،ونشر فى الكتاب الجامع لأعمال المؤتمر ٢٠٠١ .

المصرى والسلطة (أو إذا شئنا الطغيان) ، وجُماع ما قيل فى هذا الشأن ، أن حمدانًا يذهب إلى الحتم الجغرافى لهذه العلاقة ، التى يمكن أن نلخصها فى انقياد الشعب لهذه السلطة (أو هذا الطغيان) ، وما صحب هذه الانقياد من تكاليف باهظة ، تركت آثارها العميقة فى شخصيته .

ونحن هنا ـ محبى حمدان وعارفى فضله ـ لسنا فى معرض الدفاع عنه ، إنما نحن فى معرض التبسيط لنظريته والعرض لأفكاره .

- 1 -

بداءةً ينوه حمدان إنه لا يكتب فى جغرافية الحقائق ، إنما هو يكتب فى جغرافية الأفكار ، وقمتها الشخصية الإقليمية ، وهى هنا شحصية مصر ، لا شخصية المصريين ، وهذه الشخصية الأخيرة تتداخل بشدة مع فكرة الطوابع القومية ، وهى فكرة غامضة ، لا تقوم على أساس علمى واضح ، وهى ألصق بالأنثروبولوجيا والإثنولوجيا وعلمى الاجتماع والنفس[١] .

يفسر حمدان شخصية مصر فى التفاعل ائتلافًا واختلافًا بين بعدين أساسيين هما **الموضع Site والموقع Situation** ، وأفرز هذا التفاعل سمات أساسية فى هذه الشخصية ، يدور حولها الكتاب

(١) الجزء الأول . المقدمة ص٣٢ ـ ٣٣ .

كله[٢] ، لكنه يهمنا من هذه السمات ، ما يطلق عليه تعبير التجانس ، والتجانس هنا طبيعى ، مادى ، عمرانى ، حضارى وبشرى [٣].

أما عن التجانس الطبيعى فمصر وإن كانت بصحرائها دولة الصحراء المثالية ، إلا إنها بنيلها دولة النهر المثالية ، أو بتحديد أدق نموذج البيئة الفيضية المطلق ، حيث يتدرج الوادى على نحو بطئ بين الشلال والبحر ، بحيث لا يصير تباين إلا بين قاصية الشمال فى برارى الدلتا وقاصية الجنوب فى النوبة السفلى .

وإذا كان التجانس واضحًا فى هيئة الأرض داخل الوادى ، فإنه لا يصير هنا تجانس بين الوادى نفسه وبين الصحراء حوله .

يمتد التجانس إلى المناخ ، فمناخ مصر صحراوى ، لا يعرف سوى فصلين طول العام ، بحيث يصعب الحديث عن أقاليم مناخية فى مصر ، والاستثناء هو شريط الساحل الشمالى الغربى المتوسطى المناخ .

ويرتبط التجانس المادى بالتجانس الطبيعى ، فخارج الوادى ، لا توجد – على نحو تقريبى – نباتات طبيعية ، وما لدينا من مراع هى فى معظمها من صنع الإنسان .

---

(٢) المقدمة ص ٣٥ .

(٣) راجع فيما يختص بالتجانس الباب الرابع من الجزء الثالث (ص١١ ـ ٣٥٩) .

داخل مصر المعمورة ، فإن طبيعة التربة والرى والحرارة ، أفضت إلى أن تصير مصر المعمورة بيئةً زراعية ، أو هى حقل واحد متصل ، من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال ، تتم زراعته بكثافة ، ولا تدرج بين الوادى والصحراء ، بل انقطاع مفاجئ وحاد .

أفضى التجانس الطبيعى والتجانس المادى معًا إلى التجانس العمرانى ، فالنيل هو العامل الأهم فى تشكيل العمران ، ومدننا وقرانا فى معظمها ، تقع على النيل أو بين أحضانه ، وهو الذى يربط بينها ، ويحدد عدد سكانها ، ويحدد أيضًا كثافتهم ، بل إنه يحدد مستوى الصعود الاجتماعى داخل المدينة الواحدة ، بالاقتراب من النهر أو الابتعاد عنه .

أما عن التجانس الحضارى ، فالسمة العامة للقرية المصرية ، هى إنها امتداد للأرض السوداء أى الحقول ، تستمد منها مادة بنائها ومصدر معاشها ، وهى بارتفاعها النسبى ، تقترب من الماء كشرط للحياة ، وتبتعد عنه كشرط للحماية وهى بهيئتها العامة أقرب إلى أن تكون دائرة ، يقع المسجد فى وسطها ، وتختنق طرقها اقتصاداً للمكان وطلبًا للظل ، ومع الرى الدائم طالت المسافة بين القرية والحقل ، فنشأت العزبة ، خصوصاً فى شمالى الدلتا .

وفيما عدا العاصمتين ، لا تختلف المدينة عن القرية ، إلا بأنها قرية كبيرة ومع التحديث تجاور فى البناء والتخطيط نمطان ؛ قديم وحديث داخل المدينة الواحدة .

ننتقل أخيراً إلى التجانس البشرى ، وهو يعود إلى بداية العصر التاريخى ، فالمصريون المحدثون كأسلافهم القدماء عنصر واحد ، لم يعرفوا هجرات ذات شأن سوى الهجرة العربية ، وهى هجرة أقرباء ، يشتركون مع المصريين فى انتمائهم جميعاً إلى عرق واحد ، وبوجه عام لا يزيد المجموع الكلى للمؤثرات الوافدة عن + ١٠٪ من مجموع السكان .

ترتب على ذلك أن مصر ، لم تعرف الحاجز اللونى ، ولا التمييز العنصرى ، وإذا وجدت اختلافات محسوسة ، فليست داخل الوادى بقدر ما هى بين الوادى ككل والصحراء ككل .

- 2 -

مصر إذن ... وطن متجانس؛ أى وطن أحادى النغمة Einklang ؛ النيل وحده ضابط إيقاعها ، مما أفضى بدوره إلى بعد آخر فى شخصيتها هو وحدتها (٤).

هذه الوحدة لها أساسها الطبيعى من الموقع والموضع معًا ، فمن ناحية الموقع فمصر وإن تحددت شمالاً وعلى نحو قاطع بالبحر ، فليس سوى صحراء شاسعة تعد تخوماً للوادى وتنحدر فى اتجاهه ، مما يجعلها جزءاً متممًا له ، وكفلت هذه الصحراء حمايةً للوادى ، خصوصاً فى

---

(٤) التفصيلات فى الجزء الثانى الفصل الحادى والعشرين (ص٤٥٧ ـ ٥٣٥) .

الحقبة الباكرة من تاريخه ، حين كانت مصر (المعموره) ما تزال فى طورها الأول .

أما عن الموضع أى المعمور ، فإن ضآلته مساحياً (جزء من ثلاثين من مساحة مصر) كان أدعى إلى التوحيد ، ثم إن هذا المعمور يتدرج هيدرولوجيًا من الجنوب إلى الشمال ، وتتكامل أجزاؤه ، يشقه شارع طويل هو النيل ، بحيث لا توجد رقعة فى المعمور تبتعد كثيراً عن النيل أو فروعه ، وليس غريبًا - إذن - أن مصر لم تعرف الطرق الرومانية، رغماً عن طول عهدها بالرومان .

هذه الوحدة الطبيعية هى أخص خصائص الوطن السياسى المصرى ، عاش فى جنباتها شعب واحد حياةً اقتصاديةً مشتركة ، هذه الحياة الاقتصادية المشتركة هى أهم عنصر فى نشوء الأمة ، وهو ما تهيأ لمصر منذ بعيد ، فصارت - بالتالى - أول أمة فى التاريخ وأول دولة ... دولة غير قابلة للانقسام . وإذا كانت قد بزغت فى بعض أقاليمها فتنة - أو ربما ثورة - فإن الثائر لم يكن يطمح إلى الاستقلال بإقليمه ، إنما كان يطمح إلى الاستيلاء على مصر بأسرها ، وإذا كان ثائر كهمام أقام دولةً فى صعيد مصر فى فترة ما ، فإن دولته هذه لم تعمر طويلاً ، ثم إنها ترتبط بفكرة البدو عن الدولة ، أى الدولة بلا إقليم أو الدولة الفوضى (٥) .

---

(٥) عن دولة شيخ العرب همام والهوارة . انظر : « عجائب الآثار » للجبرتى فى مواضع متفرقة من الجزء الأول .

يفسر حمدان هذا بأنه لا يمكن الحياة فى وادى النيل بدولتين ، تخطط كل واحدة منهما للرى منفصلة عن الأخرى ، وبالتالى سوف تتصارعان على مشكلة المياه ثم تتصارعان على مشكلة الخروج إلى البحر ، مما يؤدى فى النهاية إلى الوحدة .

حتى فى فترات الغزو (أو الاستعمار) لم تفقد مصر وحدتها ، إنما كان الغازى (أو المستعمر) يحتلها كلها ، لأنه متى وضع قدمه فى موطئ منها قادته الطبيعة بسهولة إلى سائرها ، والاستثناء لهذه القاعدة (الهكسوس) يؤكدها ولا ينفيها .

وإذا كانت الوحدة الطبيعية لمصر هى أخص خصائص الوطن السياسى المصرى كقطعة من الأرض ، فإنها ترتبط ارتباطاً عضوياً بالوحدة الوطنية التى هى أخص خصائص المجتمع السياسى المصرى كقطعة من البشر ، ومن جماع الاثنتين الوحدة الطبيعية والوحدة الوطنية ، جاءت وحدة مصر السياسية .

الوحدة الوطنية فى مصر ملمح عام فى تاريخها عبر العصور ، فمن ناحية اللغة ، لا توجد بها سوى جيوب لغوية لا وزن لها (النوبة - سيوة - حلايب) ، بل إن هذه الجيوب فى حقيقتها مزدوجة اللغة ، أى هى تجمع بين العربية ولغاتها الخاصة ، أما من ناحية الدين ،فنسبة الأقباط ثابتة تقريبا بل ربما تتناقص بسبب التحول الدينى والهجرة إلى الخارج ومستوى المواليد .

هذا التمايز اللغوى أو الدينى - إذا صح إنه كذلك - يدنى من وقعه إن تكوين مصر الجنسى سابق لتكوينها اللغوى وتكوينها الدينى . وإذا كان بعض المسلمين داخلتهم دماء غير مصرية ، فبعض الأقباط داخلتهم دماء غير مصرية ... وعلى هذا فمعظم المسلمين هم معظم الأقباط أسلموا ، ومما يؤكد الوحدة بين المسلمين والأقباط ، أنهم يتداخلون جميعًا فى كل مصر ، ولا يشكل الأقباط أغلبيةً فى إقلم بذاته .

المظهر الأخير للوحدة الوطنية هو الوحدة السيكولوجية ، ومصدرها النيل الذى جعل المجتمع المصرى مجتمع حضر ، يكاد يخلو من مظاهر البداوة ، وهو الذى حدد - من خلال فيضانه - العمالة والبطالة والرواج فالزواج ، كما أنه تداخل فى طقوس مصر الدينية - فرعونيةً ومسيحيةً وإسلامية - كما كان محوراً من محاور الفن الشعبى والملاحم ، ويدنى من الثنائية الدينية ، فهو دين المصلحة المشتركة والخطر المشترك والحياة المشتركة ، وبذا قل أن نجد شعبًا متماثلاً فى ملامحه الجسمية والنفسية كالشعب المصرى .

- 3 -

إلى هنا ينتهى **الحسم الجغرافى** كما يدعوه حمدان (**أو الحتم الجغرافى** كما قد ندعوه) ، ولكن هذا الحسم (أو الحتم) الذى أدى إلى دولة أحادية فى أبعادها ، هو نفسه الحسم (أو الحتم) الذى

أدى إلى أن تكون حكومتها قويةً ومركزيةً فى آن [٦] .

كيف كان ذلك ؟

يعاود حمدان التأكيد على أن البيئة الفيضية دفعت إلى ضبط النهر ، وضبط النهر دفع إلى ضبط البشر ، ويقرر إنه[٧] **« بغير ضبط النهر يتحول النيل النبيل إلى شلال حطم جارف ، وبغير ضبط الناس يتحول توزيع الماء إلى عملية دموية »** . بمعنى إنه لا بد من سلطة عامة قوية ، تصير وسيطاً بين الفلاح والنهر . وزاد من قوة هذه السلطة ما نيط بها من حماية للبيئة الفيضية من خارجها ، أى من البدو ، الذين كانت هجماتهم على الوادى ظاهرةً عامةً على طول تاريخ مصر .

أما عن المجتمع فلا بد أن يكون مجتمعاً تعاونياً ، لا يعرف الفردية، وهو ما نلاحظه فى القرية المصرية ، حيث يتعاون الجميع فى شق الترع والمصارف ، وفى درء أخطار الفيضان ، ووصل هذا التعاون إلى حد العمل الطوعى غير المأجور ، وإن تحول ـ أحياناً ـ إلى سخرة ،دعاها الفلاح بالعونة .

---

(٦) معظم ما يأتى ـ بعد ـ متضمن فى الجزء الثانى الفصل الثانى والعشرين (ص٥٣٦ ـ ٥٩٩) .

(٧) ص ٥٣٨ ـ ٥٣٩ .

لهذا ـ كذلك ـ لم تعرف مصر نظام القلاع الذى عرفته أوربا فى العصور الوسطى لأن الصراع هنا ليس بين إنسان وإنسان ، لكنه بين إنسان والطبيعة .

الحكومة القوية المركزية إذن ، والمجتمع التعاونى بالذات ، هما الظاهرتان الحتميتان فى كيان مصر ، وهما اللتان أدتا إلى أن عرفت مصر الحضارة والنظام والقانون .

إذا كان الأمر كذلك ـ وإنه لكذلك ـ فمن أين أتى الطغيان .. الذى أضحت مصر عند الكثيرين هى النموذج المثالى له .

يقول حمدان [٨] : « **لا يعرف تاريخ مصر من ينكر أن الطغيان أو الاستبداد الباطش أحيانًا غير الإنسانى دائمًا هو كظاهرة واقعة موضوعيًا ، وبعيداً عن كل تفسير شخصى أو تنظير أكاديمى نغمةً دالة أساسية Leitmotif ، بل النغمة الحزينة فيه ، وأسوأ خط فى دراما الشعب المصرى . وقد لا تكون مصر أكبر سجن فى العالم ، ولكنها أقدم سجن فى التاريخ ، ويكفى أن نشير إلى كتاب[٩] أريد له « أن يكوم ملحمة الشعب المصرى ، فإذا هو مرثية طويلة لما عاناه** ») .

يذهب حمدان إلى أن الطغيان حادث بالتاريخ ، وليس أصيلاً بالجغرافية ، ويستعين فى هذا السياق بنظرية « **نمط الإنتاج**

---

(٨) ص ٥٨٠ .

(٩) يقصد « سندباد مصرى » لحسين فوزى .

الشرقى أو الآسيوى » (١٠).

يفصل حمدان فيقول إنه سادت مصر فى البداية مرحلة من المشاعية البدائية حيث الملكية على المشاع والانتاج بدائى ، لا يترك فائضًا ، ولم يكن ثم تمايز طبقى ، بل إن رئيس الجماعة كان يختار لسنة أو لحكمته ، ووظيفته حماية الجماعة من أعدائها . لكنه مع الزراعة والاستقرار ، أضيفت إلى هذا الرئيس مهام أخرى هى إزالة المستنقعات واستصلاح الأراضى ، وإقامة قرى ، وحمايتها من الفيضان، وضبط المياه وتوزيعها . وبدأ تمايز طبقى ، تحول فيه الرئيس إلى حاكم بالمعنى الدقيق ، وبعد ما تحقق له من انتصارات على جماعات معادية صار يؤله محليًا ، ثم اندمجت الكيانات الصغيرة فى كيانات كبيرة ، عبر مرحلة تاريخية طويلة ، إلى أن ظهرت أول دولة فى العالم .

كان قيام الدولة يعنى أن نمط الإنتاج الآسيوى قد اكتملت أركانه ، فقد قامت سلطة مركزية قوية ، أفادت من ظروف البيئة

---

(١٠) وهى نظرية بدأت عند بعض الماركسيين ، ثم انتقلت إلى علم الاجتماع . راجع بعض تفصيلاتها فى « الماركسية والشرق » لإلياس مرقص . بيروت ، دار الطليعة ١٩٦٨ . الفصل الرابع « المفهوم الآسيوى والمادية التاريخية » (٢٦١ ـ ٤٣٥) وانظر أيضًا : « حول النمط الآسيوى للإنتاج لأحمد صادق سعد . مجلة الطليعة العدد الثانى فبراير ١٩٧٢ ، العدد الأول يناير ١٩٧٧ والعدد الثالث مارس ١٩٧٧ .

الفيضية فى أن تدعم نفوذها ، وتبرر وجودها ، فصارت تشرف على ضبط المياه وتوزيعها على الفلاحين ، عبر جهاز ضخم من الموظفين ، وصارت تملك الأرض كلها ملكيةً عامةً كحق رقبة ، وتوزعها على الفلاحين وكبار القواد والموظفين كحق إنتفاع ، وكان على الفلاحين ـ وحدهم ـ أن يعملوا مقابل ما يكفى أودهم ، ويعود فائض العمل إلى الحاكم .

جوهر النظام إذن هو غياب الملكية الفردية وسيادة ملكية الدولة ، وأضحى الفلاحون عبيداً للحاكم عبوديةً معممةً لا فردية ، وأضحى الحاكم إلهًا .. وبذا لم تعرف مصر فى مرحلتها الفرعونية قانوناً كبيراً كقانون حمورابى .

هذا النظام وإن وضع أساسه فى حقبة سحيقة ، إلا أنه صاحب تاريخ مصر حتى القرن التاسع عشر . وبطبيعة الحال فقد خضع لبعض التعديلات فى بعض العصور ، فاقترب فى أحيان من النظام العبودى ، واقترب فى أحيان أخرى من النظام الاقطاعى .

لمزيد من التفصيل كان إلى جانب فرعون ثلاثة عمد أساسية متضخمة ؛ بيروقراطية تدير السلطة ، وثيوقراطية تبررها ، وأرستقراطية (عسكرية) تحميها . وكانت ملكية هذه الطبقات الثلاث منحةً من الملك مؤقتة ، فلا تشكل ـ من ثم ـ إقطاعاً بالمعنى الدقيق ، وتشكل ـ على العكس ـ امتداداً للحكم المركزى ، لا انتقاصا منه ، ولا انتقاضاً

عليه . وكانت صراعاتها ضده نادرةً ، سيما وإن فرعون كان يُضرِّب بين بعضها البعض ، من أجل أن يحافظ على سلطته .

أما عن الشعب ، فقد سلمت حريته للدولة ، وفرضت عليه السخرة لفترة ما كل عام ، من درء لأخطار الفيضان وشق للترع ، إلى بناء المعابد والأهرامات (**النصب التذكارى للطغيان**) ، الأمر الذى أفضى إلى أن حدّت ظاهرة السخرة من ظاهرة أخرى هى الرق .

فى العصور الوسطى استمر جوهر هذا النظام كما هو ، وإذا كان ثم ملكية فردية فهى باهتة ، والاختلاف الوحيد هو مسحة من الاقطاع مثل إقطاع الاستغلال ، حيث ينصرف حق المقطع إلى حصيلة ضرائبه ، وإقطاع المدن فضلاً عن الأوقاف ، وفى العصر العثمانى نشأ نظام الإلتزام ، أى أن يلتزم أحدهم بتحصيل أموال منطقة معينة ، نظير إقطاعها له .

يصل نمط الإنتاج الآسيوى إلى مداه فى عصر محمد على ، فهو بنظام الرى الدائم الذى أقامه على السخرة ، صار المالك الوحيد للأرض ، أى إنه ألغى الاقطاع بصورته القائمة وأراضى الأوقاف ، ثم فرض الإحتكار على الإنتاج زراعيًا وصناعيًا وتجاريًا ، أى إنه أقام نظام رأسمالية الدولة الإحتكارية ... لكن هذا النمط وفى العصر ذاته بدأ انحساره ، فمع استصلاح الأراضى البور بدأت نواة الإقطاع الحديث ، وبدأت تظهر معه ـ بالتدريج ـ ملكية فردية ، تقلصت ـ بالتدريج

كذلك ـ لصالح الاقطاع ، بحيث صار لدينا عشية يوليو ، ما عرف بطبقة النصف فى المائة ، التى كانت تستحوذ على نصف الدخل القومى.

هذا هو الإطار العام لنمط الإنتاج الآسيوى ، فى تطبيقه المصرى ، يتضح منه أن المحكومين ، كانوا يؤدون فائض عملهم إلى حكامهم ، كما يتضح منه كذلك إن هذا النمط كان الأب الشرعى لنمط آخر من الاستبداد أو الطغيان الشرقى Oriental Despotism الذى كانت مصر صورته المثلى .

لن نعدد تفصيلات هذا الطغيان ، فهى مبثوثة جميعها فى كتب الأدب والتاريخ والموروث الشعبى ، كما إن توابع هذه التفصيلات ، كانت تتراوح بين الحاكم الطاغية فى أكبر مدينة والخفير الطاغية فى أصغر قرية .

زاد من وطأة هذا الطغيان أن الفلاح المصرى لم يكن يجد منه فكاكًا ، حيث لا يعطيه المعمور الضيق فرصةً ، لأن يبتعد كثيراً عن يدى الحاكم ، وليس له سوى برارى الدلتا ومفازات النوبة أو الصحراء التى تعدل عنده الموت ، وفى أحيان نادرة كان يهرب إلى بلاد الشام .

كذلك كان من شأن نمط السكنى بالقربة ، إنه يلغى الفردية ، ويفرض تنميطًا جمعيًا ، تخفت معه روح المبادرة التى تعين على

المقاومة ، ثم إن أحادية الاقتصاد المصرى ، حدّت كثيراً من وجود طبقة من التجار والحرفيين ، أو حدت من نموها فى حال وجودها ، وكان قميناً بهذه الطبقة أن تحدث قدراً من الحراك الاجتماعى ، من شأنه أن يكسر طرق هذه الحلقة الرهيبة .

على أن أكبر مضاعف على الطغيان هو الاستعمار الأجنبى ابتداءً بالبطالمة وانتهاءً بالإنجليز . وكان الطغيان الأجنبى يتخذ من الطغيان المحلى عميلاً له وأداةً ، ولدينا نموذج الأتراك مع المماليك والعربان ، ولدينا نموذج الإنجليز مع الخديو توفيق .

ـ 4 ـ

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن ... أين شعب مصر من هذا الطغيان ؟؟

ينوه حمدان إلى نقطتين هامتين أولاهما : إن المصرى عادةً ما كان يقف سلبيًا إزاء هذا الطغيان ، فينصرف عن حياه الحاضرة (الدنيا) إلى حياة أخرى (الدين) أو حياة جديدة (الإنجاب) . وفى أحيان كان يلجأ إلى النكتة السياسية أو السخرية ، وفى أحيان ـ وإن كانت قليلة ـ يلجأ إلى خلاصه الفردى ، بأن يندرج فى جملة الكتبة أى الموظفين ، وربما يقتعد بعدها مكانةً عاليةً فى جملة البيروقراطيين، أى يصير جزءاً من النظام ، فيكرس أوضاعًا ، كان هو نفسه ينفر منها .

بيد أن المصرى ـ وللإنصاف ـ كان يقوم بهبات أو انتفاضات ، عرفت أحياناً بهوجات ، يرغم الحاكم خلالها على تقديم تنازلات ربما كانت هامةً ، وفى إحدى هذه الهبات نجحت قيادته (عمر مكرم) فى عزل حاكم (خورشيد) وتولية غيره (محمد على) وفى هبة أخرى (١٩٧٧) نجح الشعب فى وقف قرارات جائرة أصدرتها حكومته .

الأهم إن الهبة أو الانتفاضة ، كانت تتحول فى أحيان إلى ثورة عارمة ، شهد تاريخنا القديم واحدةً منها ، هى ثورة إيسوير فى عهد الأسرة الخامسة ، ويصنفها بعض المؤرخين الماركسيين على أنها أول ثورة على الإقطاع . وفى تاريخنا الحديث ثورتان ، كادت إحداهما أن تصل إلى إعلان الجمهورية (عرابى) والأخرى حققت بعض أهدافها (١٩١٩) . وفى منتصف القرن كانت هناك إرهاصات بثورة شعبية أكبر من كل سابقاتها ، سلم الجميع بحتميتها « **لولا أن سبق يوليو فقطع عليها الطريق** » وإن كان يوليو بذاته « ثورة » « هى آخر الثورات تاريخاً وأولها نجاحاً إلى حد أو آخر » [(١١)].

النقطة الأخرى الهامة هى إن ظاهرة الطغيان لم تكن قصراً على مصر وحدها إنما هى شملت العالم كله ـ قديمه ووسيطه ومعظم

---

(١١) جـ٢ ص ٥٨٠ .

حديثه ـ بل الأكثر من هذا فلم تعرف مصر نظام العبودية بالصورة الصارخة التى كان عليها فى بلاد اليونان ـ مهد الديمقراطية ـ بل لم تعرف أصلاً نظام القنانة الذى كان نظامًا أساسيًا فى أوربا فى زمن الاقطاع .

وعليه يقرر حمدان : إن الطغيان فى مصر كان روح العصر Zeitgeist ولم يكن روح المكان Genius Loci . وإذا كان طال فى مصر، فالسبب هو طول تاريخها من ناحية ، وما جرى من استعمار أجنبى من ناحية أخرى .

الأهم إن حمدانًا يقرر إن هذا الطغيان ، لم يكن حتمًا جغرافيًا فرضه النهر ، فهناك أقطار أخرى شهدت هذا الطغيان ولم يكن لديها نيل ، بل ربما لم يكن لديها نهر . كل ما فى الأمر إن نمط الإنتاج الآسيوى ، وما أسفر عنه من طغيان كان مرحلةً فى تاريخنا وإن طالت، وعلينا أن نبحث عن أسبابها خارج الجغرافيا وخارج النهر .

على أن نمط الإنتاج الآسيوى وإن انتهى زمانه ، فإن ما صحبه من طغيان لم ينته زمانه ، وقد خلف هذا الطغيان رواسب فى شخصية المصريين (لا شخصية مصر) وشوائب ، ليس أولها النفاق وليس آخرها الخنوع . وعلينا أن نعترف بهذه الرواسب والشوائب ، ونمضى إلى التعامل معها وعلاجها ، لا أن نطرى أنفسنا ، ولا نسمع إلاما يرضينا، ثم نتغنى بعد ذلك «بفضائل مصر» ولا يعنى هذا بالضرورة أن شخصية

المصريين منحرفة بطبيعتها ، إنما هى محرفة بطبيعة حكمها . وعلى الشعب أن يتحمل مسئوليته فى هذا الشأن ، فالشعب هو الذى يصنع الطاغية ، وهو الذى يجنى فى الوقت نفسه تبعات طغيانه ، أى هو الجانى والمجنى عليه معاً [١٢].

يقول حمدان فى موضع[١٣] « **إن خير عقاب لمصر دائمًا على ما هى فيه هو ما هى فيه بالفعل ، وكأنها بهذا أيضًا تعاقب نفسها بنفسها بانتظام** » . ويقول فى موضع آخر[١٤] « **إن أزمة مصر الاقتصادية ـ دعنا نحدد ونشدد مرةً أخرى ـ هى أزمة اجتماعية أولاً، وأزمة سياسية أولاً وقبل كل شىء ، أعنى إنها أزمة اجتماعية قبل أن تكون اقتصادية، وسياسية قبل أن تكون اجتماعية** » .

واضح إذن إن المفتاح لحل مشكلات مصر .. كل مشكلات مصر، يكمن فى الديمقراطية ، ولا شىء غير الديمقرطية .

يقول وعلى نحو أوضح إن مصر « **يمكن يقيناً أن تكون وطناً حراً كريماً ، مع الضبط ـ فقط ضبط الحاكم** » فصميم المشكلة والمأساة « **أن ليس ضبط النيل، ولا ضبط الناس ، وإنما ضبط الحاكم** »[١٥].

---

(١٢) راجع الجزء الأول ص ٢٦ ـ ٣٢ من المقدمة ، وكذا الجزء الثانى ص٥٨٠ ـ ٥٩٩ .

(١٣) جـ٢ ص ٥٩٦ .

(١٤) جـ٣ ص ١٥١ .

(١٥) جـ ٢ ص ٥٨٣ .

هذا هو الإطار العـام لفكرة حـمـدان عن «**شخصية مصر والطغيان**»، وهى إحدى فكرات كتابه الملحمة كما يدعوه ، أو كتابه الفلتة كما ندعوه .. أتينا عليها باقتضاب ، رغماً عن مغريات بالإطالة والإسهاب . لكن هذه الفكرة وغيرها من فكرات يحتويها الكتاب ـ يتواضع [١٦] ـ ليست الأولى من نوعها . كما إنها ليست الأخيرة فى آن ، يكفيها «أن تشع من الضوء ، مثلما تنفث من الحرارة ، على شخصية هى بكل المقاييس وباجماع الاراء ، من أغنى الشخصيات الإقليمية وأكثرها ثراءً، وتعدداً فى الجوانب والأبعاد» .

---

(١٦) جـ١ ص ٣٢ من المقدمة .



الفصل الثالث

مصريات

ليس حباً فى ناجى العلى

هوامش على دفتر المذبحة

عن المنهج وليس عن اليسار

أصرخ فى وجوهكم .. إتقوا الله !

تعليق على ما حدث

عن العراق .. وليس عن صدّام

الضمير الغائب

النفس الكبيرة

من يوميات الكويت

زمن العجائب



ليس حبًا فى ناجى العلى*

كتب الأستاذ **محمد جلال كشك** فى أخبار اليوم (١٩٩٢/٢/٢٢) مقالاً بعنوان « **ليس حبًا فى ناجى العلى .. ولكن بغضاً فى فلسطين ومصر** » وهو فى هذا المقال يسير على نهج آخرين سبقوه فى النيل من أشخاص نبلاء ، ينتمون إلى قضية نبيلة ، ولن أتعرض لما ورد فى هذا المقال من ألفاظ ساقطة ، أراد بها الكاتب أن يعاود اغتيال **ناجى العلى**، مثلما أراد غيره ـ قبل سنوات ـ أن يعاود اغتيال **سليمان خاطر** [1].

وأتناول بعض الأفكار الواردة فى هذا المقال :

١ ـ يتحدث الكاتب عن كامب ديڤيد ومدريد وينسى ـ أوهو يتناسى ـ السياق العام لكل منهما ، فلم تكن ثمة ضرورة وطنية لكامب ديڤيد ، والنتائج العامة لها سلبية ، هذه النتائج نفسها مهدت لمدريد .. بعبارة أخرى : **إن مدريد ثمرة رديئة لزمن ردئ خرج من رحم كامب ديڤيد** .

٢ ـ ويأخذ على المنظمة أنها أخطأت خطأً استراتيجيًا برفضها الحضور لاجتماعات الميناهاوس ، وهذه مقولة خاطئة ، فالمنظمة نفسها رفضت بداءةً زيارة السادات للقدس ، فكيف توافق على نتيجة

* الفنان الفلسطينى الكبير صاحب شخصية « حنظلة » طالته يد الغدر فى العام ١٩٨٨ .

(١) بطل مصرى رفض أن يذعن للاستسلام الذى ارتضاه عقلاء فقتل عدداً من الصهاينة حتى قتل ويذهب الإعلام (الرسمى) إلى أنه انتحر !! .

لهـذه الزيارة ، كـمـا أنه لم يكن وارداً أن توافق إسـرائيل على حضور المنظمة هذا المؤتمر ، والمنظمة نفسها برفضها الحضور ، إنما رفضت رفضاً إسرائيلياً متوقعاً لحضورها .

٣ ـ ويربط الكاتب بين الهجوم على السادات والهجوم على مصر ، وهو هنا ما يزال يصر على التوحد بين الفرد والوطن ، وهذه مقولة غير عقلانية ، لأنه إذا جاز أن نوحد بين السادات ومصر ، جاز أيضاً أن نوحد بين بيتان[٢] وفرنسا ، وإذا كان ناجى العلى قد أساء إلى السادات فهذا شأنه ، وربما كان شأننا ، أما إذا كان قد أساء إلى مصر ، فهذا شأننا جميعاً .

٤ ـ والأمر نفسه بالنسبة لحرب أكتوبر ، وما جرى بعد حرب أكتوبر ، فليس الهجوم على الما بعد هو بالضرورة هجوماً على الما قبل .

٥ ـ وإذا كان لناجى العلى رسومات معينة ، يزعم البعض أن فيها إساءةً لمصر فى بعض مراحلها ، فإن هذه الرسومات تعبر عن حالة نفسية ، عاشها مصريون عاصروا هذه المرحلة ، ولم تتوافر لديهم مواهب ناجى العلى الفنية .

٦ ـ ويذكر أن ناجى العلى لم يطلق رصاصةً واحدةً ضد إسرائيل ، وينسى أن ناجى العلى فنان أطلق بفنه رصاصات عديدة وليس

---

(٢) رئيس جمهورية فيشى العميلة لألمانيا بعد اجتياح هذه الأخيرة لفرنسا فى العام ١٩٤٠ .

رصاصةً واحدة .

٧ ـ ويعيب عليه أن له خطًا سياسيًا ، يختلف عن خط المنظمة ، في حين أن المنظمة لا تضيق بهذا الاختلاف ، ورئيسها نفسه كان له موقف إيجابي إبان أزمة چورج حبش [٣].

٨ ـ ويشكك في حقيقة موته ، ويدعي أن أبا نضال[٤] أطلق اسمه على معسكر لأنصاره في ليبيا .. ونسأل ما ذنب ناجي العلي ، إذا كان أبو نضال قد أطلق اسمه على معسكره هذا ، ونسأل أيضًا لماذا يثير الأستاذ كشك في هذه الأيام علاقةً مزعومةً بين ليبيا وأبي نضال [٥].

٩ ـ وينعى على السينما أنها كرمت ناجي العلي ، ولم تكرم مناضلين آخرين ، مثل كمال ناصر وأبي يوسف وأبي هاشم .. ونقول إن هؤلاء أهل للتكريم ، كما إن ناجي العلي أهل أيضًا للتكريم .

١٠ ـ وينزع عن نور الشريف صفة الفنان ، ويرميه بتورم الشخصية والجهل ، وأن كل مجده أنه كان أحلى من حسن يوسف ..

---

(٣) زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وكان يعالج في هذا الإبان بفرنسا وسعت إسرائيل للقبض عليه .

(٤) زعيم جبهة النضال الشعبي الفلسطيني ومطارد بتهمة الارهاب الدولي .

(٥) بعد اتهامها بالضلوع في إسقاط طائرة أمريكية فوق لوكيربي باسكتلندا في عام ١٩٨٨

وسوف أترك الرد على هذا الافتراء لرواد السينما الجادة ، ليتولوا هم الدفاع عن فنان جاد فى زمن فنانى المقاولات وصحافيى المقاولات .

وأنا مع الأستاذ كشك فى الدعوة لمقاطعة نور الشريف .. وأتحداه أن تنجح هذه المقاطعة .

وهذا المقال ليس حبًا فى ناجى العلى ، وليس حبًا فى نور الشريف، إنما هو حب فى مصر وفلسطين .

هوامش على دفتر المذبحة

ما معنى الكلمات .. والموقف أكبر من كل الكلمات .

إن ما حدث يوم الجمعة الحزينة ، من هذه السنة الحزينة ، من سنوات عمرنا الحزينة . دليل على أننا نعيش فى زمن ردئ .

وأحسب أن الشاعر ـ وحده ـ حقيق بالتعبير عما أحسسنا به جميعاً ـ من غضب . وما أحسسنا به ـ جميعاً ـ من هوان .

إن هذا الحادث ليس حادثا فرديًا ، كما يروج أصحاب المصالح والواهمون ، فله سوابق وله أيضا لواحق .. وهو يرتبط عضويًا بنسيج الصهيونية ، ولن يهدأ للصهاينة بال حتى **يصير العربى الطيب هو العربى الميت** .

القضية ـ باختصار ـ أن العدو يستهين بنا ، ولم يكتف بالكم الهائل من التنازلات التى تقدمنا بها طائعين أو غير طائعين ، وإنما هو يتطلع إلى المزيد ، ثم يتطلع إلى المزيد .

لقد شجبت الصهيونية الرسمية ما جرى ، وسارعت أجهزة إعلامنا ـ سامحها الله ـ تروج لهذا الشجب .

لكن العقلاء منا لم تنطل عليهم هذه الخدعة ، مثلما انطلت على الذين من قبلهم ، خدعة الحاجز النفسى .

(*) مقال نشر بجريدة الأهالى فى ١٦ من مارس ١٩٩٤ . وذلك بعد المذبحة التى راح ضحيتها عدد كبير من أهلنا الفلسطينيين بالخليل على يدى صهيونى من أتباع الحاخام مائير كاهانا .

المسألة ببساطة توزيع للأدوار ؛ فطرف إسرائيلى يذبح ، وطرف إسرائيلى يشجب ، والنتيجة فى النهاية واحدة .

شيء مثل ذلك جرى عشية المأساة فى العام ١٩٤٨ ، فعصابة الأرجون (أسلاف الليكود) تذبح الفلسطينيين فى دير ياسين ، وعصابة الهاجاناه (أسلاف العمل) تشجب هذا الذبح .

لكن النتيجة هى نزوح الفلسطينيين ، وهو الهدف المنشود للطرفين معا .

ماذا يقصدون الآن ؟

يقصدون نزوح فلسطين (القضية) بعد نزوح فلسطين (الشعب) .

إن اقصى ما يظفر به الطرف العربى بعد هذه المذبحة ، تنازلات إسرائيلية بالكف عن طلب المزيد من التنازلات الفلسطينية ، وينشأ ـ من ثم ـ كيان هزيل أشبه بالبلديات فى زمن مضى .

الأهم هو ما يأتى بعد من تكريس لليأس والمذلة والعار ، ويتم نزوح القضية ، ثم يأتى زمان بعد هذا البعد ، فنوصف فيه بأننا مخلوقات كانت رجالاً .

الأمر يحتاج هذا إلى وقفة ، ولا بد من مكاشفة ، ومعذرةً لجورباتشوف ، نقول إن مصر منذ أن تخلت عن دورها العربى وتم تحييدها ، والكوارث تتوالى عليها وعلى العرب .

إن ما حدث غداة حرب أكتوبر ، وبالتحديد منذ زيارة القدس المشئومة هزيمة بأى قياس ، وقد تم تقنين هذه الهزيمة (أو الجريمة) فى كامب ديڤيد . وليست غزة ـ أريحا إلا نتيجةً لهزيمة ، أو إنها هزيمة جديدة فى مسلسل الهزائم التى قدر لهذا الجيل البائس أن يتجرعها حتى الثمالة ... ما أتعس هذا الجيل ! .

بعد كامب ديڤيد أعلن العدو ضم الجولان ، وأعلن القدس عاصمةً أبديةً لدولة إسرائيل ، واقتحم عاصمةً عربية ، وضرب البنية الأساسية للمقاومة وطاردها إلى تونس ، وعلى الطريق إلى تونس ذبح الفلسطينيين فى صبرا وشاتيلا . وعرفات يبادر ويتنازل ، ثم يبادر ويتنازل ، ويعلن ذات يوم أنه لم يعد لديه سوى ورقة توت .

لقد علمتنا التجارب أن التنازل عن حق أدعى إلى التنازل عن حقوق ، والهاوية تدعو إلى الهاوية ، ومن يبدأ طريق الاستسلام ، يصعب عليه أن يفىء إلى طريق غيرها .

أما نحن فى مصر ، فقد وعدونا بأنهار من العسل ... صدقناهم وتمضى سنوات ولم تكتحل أعيننا بمرأى هذه الأنهار .

الصورة العامة رديئة .. رديئة ..

أعطيناهم البترول الذى غزوا به لبنان . وأعطيناهم الطوب الذى ابتنوا به مستوطناتهم ، وتنافسنا مع قطر على توريد الغاز الطبيعى إليهم،

ورحبنا بهم ضيوفًا مكرمين بقرية فلفلة ومنتجعات سيناء ، واستقبلناهم في دار الإفتاء ، وجعلناهم يقيمون الموالد لأبى حصيرة .. وتحول صراعنا معهم إلى صراع نفسى ، روج له دعاة ليس أولهم شعلان ، وليس آخرهم أبو العزائم .

أعطيناهم كل شىء .. ولم يعطونا أى شىء ..

أسأل حكامنا أعزهم الله :أفيدونا أفادكم الله ، ما الذى أفدناه من هذا النهج نهج الاستسلام ، وأية مصيبة كانت ستحل بنا لو اننا تنكبناه !!

عن المنهج ... وليس عن اليسار

نشر الدكتور عبد العظيم رمضان مقالا فى الأهرام (١٦ إبريل ١٩٩٤) عاود نشره فى أكتوبر (١٧ إبريل ١٩٩٤) عنوانه « لو كان اليسار المصرى يحكم مصر » ، ومجمل المقال نقد للخطاب السياسى لليسار المصرى ، بجناحيه الاشتراكى والناصرى ، ولدينا على هذا المقال مجموعة من الملاحظات .

الملاحظة الأولى تتصل بالمعزوفة الأساسية فى هذا المقال ، وفى غالب مقالات الكاتب ، وهى **معاهدة السلام وتحرير سيناء** ، فهو يأخذ على اليسار المصرى أنه « كان على الدوام متخلفًا عن نظامنا السياسى فى ممارساته السياسية » ويتضح ذلك من معارضته الشرسة **(للسادات العظيم)** فى مبادرته (أو مبادراته) وزيارته للقدس وتوقيعه لكامب ديفيد ، وينعى على صحافته ، أنها ما زالت تمارس هراءها وأفكارها المضللة العقيمة « وتحاول بها خداع جماهيرنا وتغييب وعيها وإقناعها بأوهام لا وجود لها إلا فى عقول المرضى ونزلاء المصحات العقلية » .

نقول إن فى هذه المقولة اجتزاءً واضحًا ، صحيح أن المعاهدة أسفرت عن تحرير سيناء ، لكنها أسفرت أيضًا عن وجود عسكرى مصرى محدود بها ، وانتقل خط المواجهة ، ليصبح من الناحية العملية قريبًا من قناة السويس . كما أسفرت عن حال من الإنفلات فى

المنطقة ، بعد غياب مصر عنها ، فعربدت إسرائيل ما شاء لها من عربدة، وتنازل العرب ، ما شاء لهم من تنازلات .

نموذج آخر للإجتزاء ، فالكاتب ينعى على اليسار المصرى ، أنه - بخلاف ما عليه الحال بالنسبة لليسار الإسرائيلى - ليس محبًا للسلام ، ويتناسى أن اليسار الإسرائيلى محب للسلام ، لسبب بسيط ، هو إنه ليست له أرض محتلة .

الملاحظة الثانية هى **المغالطة** ، فالكاتب يتحدث عن صلح برست ليتوفسك ، والتنازلات التى بادر بها لينين ، ويعقد مقارنة بين هذا الصلح وبين كامب ديفيد ، ومكمن المغالطة هنا أن السياق العام لصلح برست فى ٣ مارس ١٩١٨ يختلف عن السياق العام لصلح كامب ديفيد فى ٢٦ مارس ١٩٧٩ .

فى صلح برست كانت روسيا مهزومة هزيمةً كاملةً فى الخارج، كما كانت قد بدأت معاناتها من فلول الحكومة المؤقتة والحرس الأبيض المدعوم من دول التحالف ، فضلاً عن المجاعة . ولم تكن الحال كذلك بالنسبة لصلح كامب ديفيد .

الملاحظة الثالثة هى **الشكلية** ، فالكاتب يذهب إلى أن السادات لم يتنازل فى خطابه أمام الكنيست ، والحقيقة أنه تنازل قبل خطابه هذا عندما زار القدس ، وتنازل أيضاً بعد خطابه عندما وقع كامب ديفيد .

كذلك يأخذ الكاتب على اليسار أنه يستخدم فى خطابه السياسى تعبير العدو الإسرائيلى ، فى حين أن هناك معاهدة سلام ، ويتناسى الكاتب أن إسرائيل صهيونية ،فهى عدو من حيث هى صهيونية ، وسوف تظل عدواً إلى أن تكف عن صهيونيتها .

ننتقل الآن إلى الملاحظة الرابعة وهى **التبرير** ، فالكاتب يبرر ما عليه الوضع الراهن بما جرى من متغيرات دولية ، أبرزها اختفاء الاتحاد السوفييتى من الساحة ، لكنه ينسى أن هذه المتغيرات تجاورها ثوابت ، يشهد عليها ـ كمثال ـ الموقف الحالى لروسيا من أزمة البوسنة .

أما الملاحظة الخامسة فهى **التعميم** ، ويستخرج من ظاهرة وجود تيار محدود ينزع إلى السلام فى إسرائيل ، إلى أن هذا النزوع هو النزوع السائد هناك ، ويقرر أن الشعب الإسرائيلى طرد حكومة الليكود، وأتى بحكومة العمل . وواقع الحال أن الليكود والأحزاب المتحالفة معه يحتل فى الساحة الإسرائيلية نصيبًا يعدل نصيب العمل والأحزاب المتحالفة ، ثم إنه فى عهد حكومة العمل ، وبعد مذبحة الخليل ، ذبح جيش الدفاع الإسرائيلى ستة من مناضلى فتح ، عادوا إلى بلادهم مستأمنين وليسوا كمناضلين .

الملاحظة الأخيرة وهى **التعجيز** فالكاتب يسأل عن البديل ويقرر إن البديل هو الحرب ، ونرد عليه بأن اليسار ليس مسئولاً عن فعل يسأل

هو ـ أى الكاتب ـ عن بديله ، إنما المسئول عن هذا الفعل هو من وقع كامب ديفيد ، ومع هذا فليست الحرب هى البديل الوحيد بالضرورة ، ويمكن أن يكون البديل بأن نكتفى بما جرى من تطبيع ، ولا نذهب إلى أبعد من ذلك ، أما إذا فرضت علينا حرب ، أو ظهر اتجاه لفرضها ، فلكل حادثة حديث .

وبهذه المناسبة فالكاتب يسخر من اليساريين الذين يناضلون من مكاتبهم المكيفة ، ونرد عليه بأن التكييف لا يرتبط وجوداً وعدمًا بالنضال ، إنما هو يرتبط وجوداً وعدمًا بالطقس وقدرات مادية ربما تكون فى متناول أوساط الناس .

أخيراً نقول : ليكن الدكتور عبد العظيم رمضان صديقًا للإسرائيليين فهذا شأنه ، أما أن يرمى غيره من غير الأصدقاء بكل نقيصة ، فهذا ليس شأنه .

وأزعم أن التاريخ سوف يحكم على هذا (**المؤرخ**) فى قابل من الزمن بما لا يرضيه.

وكاتب هذا المقال لا ينتمى إلى أيٍ من حزبى اليسار ، وهذا المقال ليس دفاعًا عن اليسار ، لكنه دفاع عن المنهج ودفاع عن الوطن ومستقبل هذا الوطن .

أصرخ فى وجوهكم .. إتقوا الله

التعديلات التى صدرت مؤخرا بشأن قانون الجامعات وأهمها تعيين العمداء تطرح العديد من التساؤلات . وأهمها هل نحن ـ أو بالأحرى حكامنا ـ جادون فى السير على طريق الديمقراطية .

يلوح لى إن الإجابة عكس ذلك تمامًا . فالدستور ينص على استقلال الجامعات . وهذه التعديلات عدوان على استقلال الجامعات .

يزعمون أنه صدر بعد أخذ رأى مجالس الجامعات . ولكننى أقول إن مجالس الجامعات ليست الجامعات .

ويزعمون أنه صدر لتلافى عيوب الانتخابات . وهى كلمة حق أريد بها باطل ، فلا يوجد نظام ـ أى نظام ـ يخلو من عيوب ، ولن نكرر ما يردده كتاب الحكومة وسدنتها صباح مساء ، من أن عيوب الديمقراطية تعالج بالمزيد من الديمقراطية .

القضية هى كما يقول الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   لكن عين السوء تبدى المساويا

يزعمون ويزعمون ويزعمون ، ثم هم بعد ذلك يبررون فيقولون : إن العمداء فى بعض الجامعات الأوربية يعينون ، وهذا صحيح ، لكنه

(*) مقال نشر بجريدة الأهالى فى ٢٢ من يونيو ١٩٩٤ .

اجتزاء من السياق و فالذى يعين العمداء مجلس من الأمناء وليس من الحكام ، ثم إن هذه الجامعات تعبر عن بيئات تختلف عن بيئتنا ، وتوجد بها مؤسسات عريقة فى الممارسة الديمقراطية ، ولا تعانى من جموح السلطة التنفيذية .

وإذا كانت الأمور تعرف بمقاصدها ، كما يقول الفقهاء ، فماذا يقصدون ؟ ... يقصدون أمن النظام ، ونحن مع أمن الوطن ، وهو أعم من أمن النظام .

النظام ـ باختصار ـ يشترى الحاضر بالمستقبل ، فأمنه مهم ، لكن الأهم هو أمن الوطن ، إن فى هذا القانون موتًا مدنيًا لأستاذ الجامعة لأنه يهمش دوره ويدفع به إلى السلبية والنأى عن مشكلات هذا الوطن وهموم هذا الوطن ، فتخلو الساحة ـ من ثم ـ لمن يطلقون عليهم وصف الإرهابيين وتتاح الفرصة لضرب أمن الوطن .

اتساءل لماذا العجلة فى إصدار هذه التعديلات ، وفى نشرها بالجريدة الرسمية غداة إصدارها ، فمشروع قانون الإسكان استغرق سنوات ولم يصدر ، وتعديل قانون الجامعات استغرق ساعات وصدر .

ويدور همس بين أصحاب المصلحة ـ وهم الأساتذة ـ إن المقصود بهذا التعديل الذى صدر بليل هو العمداء المشاغبون الذين رفضوا ـ عن حق ـ نظام الفصلين الدراسيين ، ورفضوا ـ عن حق أيضاً ـ فصل الطلاب بتقارير أمنية .

القانون - إذن - قانون بالتفصيل و يتعامل مع حالة جزئية ، فى حين أن القانون - فقهاً - يتوخى العمومية .

ترى هل عاد الزمان إلى القوانين السيئة السمعة التى أصدرها مجلس الشعب (**المعين**) فى عهد (**السادات العظيم**) كما يصفه أحد السدنة .

إن المصائب التى أصابتنا فى تاريخنا المعاصر - كل تاريخنا المعاصر - مصدرها غياب الديمقراطية أو تغييبها ، ولدينا شواهد عديدة ليس أولها قانون النقابات ، وليس آخرها قانون العمد ولا قانون العمداء.

ولا أفهم أن يصدر قانون أو تعديل قانون يتصل بعقل هذا المجتمع وأى مجتمع وهو الجامعة ، فى غياب أصحاب المصلحة (أو اللامصلحة) فى هذا القانون أو تعديله وهم أساتذة الجامعة .

أيها السادة : أهل مكة أدرى بشعابها .

كنا نتطلع - كأساتذة - إلى تعديل لقانون الجامعات ، أو إلى قانون جديد للجامعات ، يتناسب مع المتغيرات الحاصلة محلياً وعالمياً ، لا أن تحدث ردة عن هذه التطلعات .

كنا نتطلع إلى أن نسترد حقوقنا المالية المشروعة والمهدرة ، حتى يتوافر لأستاذ الجامعة مناخ معاشى يتيح له الفرصة لأن يعطى الجامعة ، ويعطى المجتمع خارج الجامعة .

كذا نتطلع إلى تعديل اللائحة الطلابية أو إصدار لائحة جديدة تعيد الانتماء إلى من ذهب عنهم الانتماء .

أيها السادة : تتحدثون عن الاستثمار وتنسون أن التعليم هو الاستثمار الأمثل والأبقى .

أيها السادة : تتحدثون عن النمور الآسيوية والأمل فى اللحاق بالنمور الآسيوية وتنسون أو تتناسون إن حجر الزاوية فى نهضة هؤلاء النمور هو التعليم .

أيها السادة : تتحدثون عن الليبرالية الاقتصادية وتنسون أو تتناسون أن الليبرالية الاقتصادية لا بد وأن ترافقها ليبرالية سياسية .

أيها السادة : أصرخ فى وجوهكم .. إتقوا الله .

تعليق على ما حدث

بعد تفكير مرات ومرات لم أجد أنسب من هذا العنوان الذى اقتبسته من الصديق الراحل **أمل دنقل** . وأبدأ فلا أدرى من أين أبدأ ، ولا كيف أبدأ ، وأتمثل بمقولة المصطفى (ﷺ) حين مات ولده : « تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضى الرب ، وإنا يا إبراهيم عليك لمحزونون » .

يجدر بنا ، وقد انتهت المقتلة ، وانتهينا من دفن قتلانا أن نتأمل ما صارت إليه حالنا ـ حال العرب ـ فى هذا الزمان .

الوصف الدقيق أننا نعيش حالاً من الهوان ، لم نعشها قبلاً ، وأخشى إننا سوف نعيشها بعداً وبعداً .

عشية العدوان هرولة عربية لتطبيع العلاقات مع العدو ... تعاون عسكرى مع الأردن ، مكتب تمثيلى (سفارة) فى تونس ، هدايا وعطايا من شيخى قطر وعُمان .

الفلسطينيون محاصرون جوعى فى الضفة وغزة ، لم يشفع لهم أن قيادتهم أسقطت البندقية ، وقايضت حاضرهم بمستقبلهم .

---

* كتب هذا المقال بعد مذبحة قانا التى ارتكبها العدو الإسرائيلى فى جنوبى لبنان ١٩٩٦ .

العالم كله ... ثلاثون دولة هرعت إلى شرم الشيخ زرافات ووحدانا، ومن كل فج عميق ، لقمع الإرهاب ... آسف الإرهاب العربى .

وبالنشرة طائفة أخرى من الأنباء .

يبدأ العدوان ويدعى كبيرهم أن المقاومة خرقت تفاهم ٩٣ ، ويعلن فى هذا السياق أن أمن بيروت من أمن كيريات شمونة ، فيساوى بين حاضرة ألفية عريقة وبين قرية مغتصبة .

كبيرهم يا قوم كاذب ، فهو الذى نقض تفاهم ٩٣ ، وضرب مدنيين ، فضرب حزب الله مدنيين .

لماذا إذن يشعلون النار فى لبنان ؟

البعض يرى السبب فى انتخابات إسرائيلية اقترب موعدها ، وأرى السبب فى إعادة أجواء الحرب الأهلية وإحراج سورية وإظهار عجزها ، وفك الارتباط بين المسارين السورى واللبنانى ، ثم ضرب البنية الأساسية الدولة اللبنانية ، حتى لا تصبح بيروت منافسًا لحيفا فى زمن الشرق أوسطية ، وما أدراكم ما الشرق أوسطية .

الأهم مزيد من الإذلال حتى يعاود المسار السورى ـ اللبنانى مساره، ومن سار على الدرب وصل .

وتتساقط عناقيد الغضب ... خمسمائة ألف من أهلنا يهرعون إلى الأمان ولا أمان ، فقد تقطعت بهم سبله ، وضربت المواقع الدولية التى لاذوا بها ، وضربت معهم قوات دولية مسكينة تنتمى إلى جزيرة

مسكينة (١)، يصعب أن نحدد موقعها علي الخريطة .

ماذا كانت ردود أفعالنا ؟؟

قلنا وبصوت عال: هذاالعدوان من شأنه أن يعطل عملية السلام .

قلت : يا سـلام !! . . . هكذا إخـوان لنا يذبحـون في لبنان ، ونتـحـدث عن السـلام . . . يا للـهـول !! هل بعـد هذا الهـوان ، تتحدثون عن السلام، أم أن الأمر كما يقول الشاعر :

من يهن يسهل الهوان عليه ∴ ما لجرح بميت إيلامُ

أتساءل : هل العرب جـميعهم ـ قحطانيةً وعـدنانيةً ـ تحولوا إلي ظاهرة صـوتيـة كمـا يقـول نزار ، وهل من زعـمائهم من يـلبسـون الحفاضات ، عند سماع أول صفارة إنذار كما يقول أيضًا نزار .

تنتـهي المقتلة ويعلن الرئيس الأمـريكي أسفـه لهذه المقـتلة . . . ليذهب الرئيس الأمريكي وأسفه إلي الجحيم !! .

الأسف لن يعيد لنا أطفـالنا الذين دفناهم ، بعد أن أذن العدو لنا بدفنهم ، وأتـسـاءل : لماذا اجـتـمع العـالم كله ، بـعـد تل أبيب ـ عسقلان، ولم يجتمع العالم كله بعد النبطية ـ قانا ؟؟ .

هل لأنهم أخلاف سارة ، ونحن أخلاف هاجر .

---

(١) جزيرة فيدي .

يبتسم صاحبى ابتسامة العارف ويقول لأنهم أقوياء ، والعالم يحترم القوة (**والشجيع**) فى أفلام الغرب على حق دائمًا ، لأنه قوى دائمًا ، ولا يوجد (**شجيع**) ينهزم .

أسكت وأقول : إن هذه المقتلة أسقطت مجموعة من الرهانات .

سقط الرهان القائل بزحزحة الدعم الأمريكى للصهاينة ، وقد انتهى زمن الحرب الباردة .

الأكثر من هذا فأمريكا تحاصر دولاً عربيةً ، ووزير دفاعها يلوح وهو ضيف علينا فى أرضنا بضربة جوية لجارتنا العربية ليبيا ... هل تصدقون !!

وسقط الرهان على حزب العمل ، والفارق بينه وبين الليكود أن الأول شغل بذبح اللبنانيين فى النبطية وقانا ، والآخر شغل بذبح الفلسطينيين فى صبرا وشاتيلا .

وسقط الرهان على حركة **السلام الآن** ، فهذه الحركة التى يهلل لها كتابنا التطبيعيون لم تتحرك .

العجب العجاب أن هذه الحركة نفسها تشارك فى حكومة العدو من خلال كتلة **ميرتس** ، أى إنها شاركت فى ذبحنا .

هل سمعتم أم يصدق فيكم قول الشاعر :

أسمعت إذ ناديت حياً ∴ ولكن لا حياة لمن تنادى

ما العمل ؟

يكرر صاحبى : هم أقوى منا ... أقول وماذا عن الشيشان بلد المليون مقاوم !! لماذا نعلق خيبتنا دائماً على مواقف الآخرين ؟؟ .

السبب الأهم فى صلف العدو واستكباره هو ضعفنا وخورنا وذهاب أمرنا ... إن قوتهم ـ وحدها ـ وأيًا كان مداها لا يمكن أن تفسر ، كما لا يمكن أن تبرر قعودنا عنهم .

يسألنى صاحبى : إذن ما العمل !!؟

أقول : لا منجاة لنا من هذا الهوان إلا بمشروع وطنى (أو صحوة كبرى) حدها الأدنى مناهضة التطبيع فى الخارج والديمقراطية فى الداخل .

إن مسيرة الذل بدأت بعدما أسقطنا خيار الحرب عند الكيلو ١٠١ ، فلا أقل من أن نسقط اليوم خيار التطبيع ، ومعه خيار الشرق أوسطية .

ولا أعنى بالديمقراطية حرية الصراخ ، وأعنى بالديمقراطية **التداول السلمى للسلطة** . أكرر **التداول السلمى للسلطة** .

إن غياب الديمقراطية ، مسئول عن اتفاقات استسلامية منفردة ورطنا فيها حكامنا وألزمونا إياها ... وغياب الديمقراطية مسئول

أيضًا عما نشاهده اليوم من إفقار وإرهاب وفساد وبطالة وتدن فى الخدمات وتدن آخر فى الانتماء وأمية .

أين الرخاء المزعوم الذى ننتظره أو ينتظرنا فى العام ٢٠٠٠ .

هذا مشروعنا الوطنى يتقدم به العبد الفقير ، علينا أن نسعى إليه وأن نسعى به ، وإلا فالويل لنا .

ويا أهلنا فى لبنان سامحونى ... دمكم علينا وعلى أولادنا .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

عن العراق وليس عن صدام

لن أبدأ هذا المقال بعبارات زاعقة ، هو جدير بها ، لكننى والألم يعتصر نفسى أحاول أن أنحى مشاعرى ، وأتوجه إلى الصميم .

تم التفاهم بين العراق والأمم المتحدة ، وأقر مجلس الأمن صيغة هذا التفاهم ، وقننها فى قرار ... والسؤال الآن ماذا بعد ؟

لا أزعم أننى أفهم كثيراً فى السياسة ـ وقانا الله شرها ـ لكننى مواطن مصرى بسيط ، ينتمى إلى قبيلة المثقفين .

ما أفهمه أن القرار الجديد ، يلزم العراق بما سبق أن أعلن رفضه له ، وفيما عدا هذا ، هناك تفصيلات ربما بدت فى سياقها العام نصراً للعراق .

انقشعت الغمة إذن وانجاب الخطر (مؤقتًا) ... دعونا نفكر فيما صارت إليه حالنا ـ حال العرب ـ فى العقد الأخير .

إنها حال حزينة تبعث إلى البكاء ... ولكن ما جدوى البكاء على اللبن المسكوب . الأزمة الأخيرة لن تكون الأخيرة ... وإن كانت الكبيرة منذ العام ١٩٩٠ ، هناك أزمات أخرى وأزمات تبدو قريبة ، بل تبدو أقرب مما نتصور . والمطلوب وبإلحاح أن نراجع أنفسنا ، فالجو

---

* كتب هذا المقال بعد التهديد بضرب العراق لعدم تعاونه مع فرق التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل فى نوفمبر ١٩٩٨ .

ضباب والموج طام والطوفان قريب ، ولن يفلت منه أحد .

بداءةً علينا أن نقرر بوضوح أن أمريكا لا تضمر خيراً لنا ، وتسعى في ضررنا ، وتتذرع بالشرعية الدولية ، وتطبقها على نحو انتقائى ، أو تفسرها فيما يوافق هواها ، أو تتجاهلها كما هى الحال فى الشأن الليبى . وتشن حرب إبادة على أهلنا فى العراق ، وتكذب فتدعى أنه يمتلك أسلحة دمار شامل ، وأنه يهدد جيرانه ، وتهدف من خلال تمديد إتفاق النفط للغذاء إلى أن يصير بديلاً عن رفع الحظر ، وتعلن غير مرة أن هذا الحظر باق ، ما دام صدام فى السلطة .

عندما يضيق الحصار على العراق ، ويسعى إلى نهاية له ، وتلوح فى الأفق جسور مصالحة مع من هم حوله ، تسعى أمريكا إلى ضربه ، وتؤلب العالم كله ضده ، وتعاود الكذب فتزعم أن العرب يؤيدونها ، وعندما يتململ العرب من كذبها ، تلوح لهم - فى مصر - بقطع المعونة . وهى فى الأحوال جميعها ، تجد فى العدوان حلاً لمشكلات اقتصادية _ ما أكثرها _ وتأمل أن تجد من العرب من يدفع الفاتورة لقتل العرب ، وأن تجد من العرب من يشترى سلاحاً لن يستعمله ، أو يستعمله فى قتل غيره من العرب .

ما هذا !! ؟

إنه العنجهية والصلف والغطرسة ، فأمريكا لا قلب لها ، لم تحتل أرضها يوماً ، ولم تطأها قدم غازية، وفلسفتها الوحيدة النجاح،

ولغتها القوة، ولا يهمها سوى مصلحتها، ولن تعدم وسيلةً لتبريرها.

إلى هذه الدرجة بلغ بكم الهوان يا عرب ... العراق اعتدى على الكويت ، وهذا صحيح ، ولاقى جزاءه مضاعفًا وهذا أيضًا صحيح ... فلماذا يحدث الآن ما يحدث ؟

إذا وقع عدوان على العراق اليوم ، فسوف يقع على غير العراق غدًا ، والمبررات دائمًا حاضرة .

قبل فترة سربت أجهزة إعلامهم أخبارًا عن أن العراق هرّب أسلحة دمار شامل إلى أقطار عربية أخرى ويزعمون أنهم غير متأكدين ... فى مرحلة تالية وحسب الأحوال سوف يزعمون أنهم متأكدون .

أتوقف وأتساءل أين نحن من هذا كله ؟؟

إن ما حدث من رفض للعدوان الأمريكى هو فى أحسن حالاته رد فعل محدود أسفر عن نتائج محدودة ، ومن واجبنا أن نجاوز ردود الأفعال إلى أن نكون فاعلين . علينا أن نتساءل عما قدمناه ـ نحن العرب ـ للعراق ، منذ أن بدأ حصاره فى العام ١٩٩١؟؟ نحن منعناه من حضور فى مؤتمرات قمة ، ومنعناه من حضور فى فضائيات العربسات، وتركناه يتجرع مرارة الذل ، دون أن نحرك ساكنًا .

هم يحاصرونه ونحن نحاصره ،ثم نتباكى على ضحايا الحصار.

فلنطبع مع العراق .

غداة كامب ديڤيد عقدت لقاءات تطبيعية بين عدد من مثقفينا وبين عدد من مثقفى العدو الصهيونى ، وتواصلت هذه اللقاءات ، رغماً عن الرفض الشعبى العارم لها ، بل إن بعضها عقد وأهلنا يذبحون فى صبرا وشاتيلا .

لماذا لا تعقد مثل هذه اللقاءات بيننا وبين أهلنا فى العراق ؟؟

ينبرى أحدهم ويقول : يجب أن يزول صدام أولاً .

أقول هذه مقولة غير واقعية وغير دقيقة ، والهدف منا التعجيز ، يطلقها البعض عن جهل أو سذاجة أو هما معاً ، ويطلقها البعض الآخر عن سوء قصد أو سوء نية أو هما معاً .

علينا أن نقبل العراق كما هو بصدام أو بغير صدام ، وعلينا أن نتعامل معه كما هو بصدام أو بغير صدام .

وعلينا أن نقبل بالتحدى الأمريكى ، ولا أقصد بالتحدى هنا مواجهة ، إنما أقصد مقاطعة ... وسلاح المقاطعة سلاح نبيل أثبت جدواه فى تحرير الهند وغير الهند ، وأحرى بمثقفينا أن يتدارسوه ، ويجعلوا منه همًا يوميًا . يكفيهم عن التدافع إلى الجنادرية وغير الجنادرية .

هذه ليست أمنية بل هى واجب ، وليست تطوعًا ، بل هى قدر، ولا مهرب للإنسان من قدره ، ولا مهرب لمصر من قدرها .

يعاود صديقى فيقول : حسن إذن وماذا عن العرب ... عن أغنياء العرب ؟؟ .

أقول : أضعف الإيمان أن يتوجه جزء من فوائض نفطهم إلى روسيا وفرنسا والصين وأقطار أخرى غيرها ، ولا تعود قصراً على اليانكى وحلفائه ، وأتساءل لماذا لا تتوجه بعض هذه الفوائض إلى دول عربية مثل مصر ، قطعت مراحل لا بأس بها فى طريق التطور الرأسمالى ؟!

ما دامت المسألة هى المصلحة ، والمصلحة فحسب ، فلنجرب أسلوب التباعد عن أمريكا ، بعد أن جربنا أسلوب التقارب .

إننا بهذا نكون قد قطعنا خطوات واسعة إلى نظام عربى جديد ، لا أن نكون جزءاً من نظام عالمى (أمريكى) جديد .

أترك القلم ... وأهرول إلى ولدى فأناوله كوبة لبن وجرعة دواء، وأتأمل حال ولد عراقى مثل ولدى ، لا يجد كوبة لبن ولا جرعة دواء، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الضمير الغائب

مثل أى عربى آخر حزنت ... بكيت ... الكتابة صناعتى .. عاودنى هاجسها غير مرة .. لكن ماذا أكتب فى هذه الليالى الحزينة من ليالى عمرنا الحزينة .. استجبت لهذا الهاجس ، حين طالعت مقالاً مستفزاً لكاتب مستفز ، كان ذات يوم مؤرخًا ، يدعى عبد العظيم رمضان .

عنوان هذا المقال المنشور فى جريدة الأهرام هو « الضربة الأمريكية فى الميزان التاريخى » .

الشطر الأول من المقال تمهيد للاستفزاز ، والشطر الآخر هو الاستفزاز بعينه .

يبدأ الكاتب مقاله فيتتبع مسيرة « النظام العراقى » ، ويتتبع خطاياه واحدةً فواحدة ، وآخرها غزوه للكويت فى العام ١٩٩٠ ، وما ترتب على هذا الغزو من نكبات .

لا نختلف مع الكاتب فى إدانة هذا الغزو ، ونختلف معه فيما عداه ، فموضوعنا اليوم عدوان أمريكى على دولة عربية ، وليس عدواناً عراقياً على دولة عربية .

---

* مقال نشر بجريدة الشعب فى ٨ من يناير ١٩٩٩ .

بطبيعة الحال ـ وكما هى عادته ـ نشاهد فى تحليل الكاتب مبالغات ، لا تخفى دلالتها على القارئ اللبيب ـ وأزعم إننى كذلك ـ فهو يجعل احتلال صدام للكويت « **احتلالاً بربرياً لم يقم به هولاكو أو جنكيزخان** » والمقارنة هنا غير صحيحة .

يذهب المؤرخون المعاصرون للغزو المغولى إلى أن جملة ما ذبحه المغول فى بغداد وحدها ثمانمائة ألف إنسان ، كما إنهم استباحوها أربعين يوماً صارت بعدها قاعاً صفصفاً .

المبالغة هنا ـ أو التلاعب بالأرقام إذا شئنا الدقة ـ الهدف منها فى النهاية ـ استعداء القارئ على العراق ، وتبرير أى ردة فعل ضده .

ننتقل إلى الشطر الأخير ـ والأهم ـ من هذا المقال ، فالكاتب يجعل النظام العراقى مسئولاً عما جرى من عدوان أمريكى همجى ، حين انصرف بعد هزيمته إلى صنع أسلحة الدمار الشامل ، غير عابئ بما أنفقه من مال ، وما جرى من صدامات مع فرق التفتيش ، ويقرر إنه « **كان عملاً جاداً ومقصوداً ومخططاً هدفه** » ، وهو استنزاف ثروات الخليج ، فلما تحقق هذا الهدف أو كاد ، لم يعد هناك مبرر لوجود هذا النظام ، ولا بد من إزالته .

ما هذا !!! ؟ ، لقد ثبت بالدليل إنه لم تعد توجد أسلحة دمار شامل فى العراق ، ويعترف بذلك أعداء وأصدقاء ، وبتلر[1] نفسه

---

(١) الرئيس السابق للأونيسكوم المسئولة عن التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل وخرج على مقتضيات وظيفته وتعامل مباشرةً مع الإدارة الأمريكية ، منحازاً ضد العراق .

يؤكـد أنه تم إغـلاق الملف النووى والملف الكيـمـاوى ، وأنه بسـبـيل إغلاق الملف البيولوجى . وفى الفترة ما بين أزمة نوفمبر وأزمة ديسمبر، قـامت لجان التفـتيش بـ٤٢٧ زيارة ، لم تحـدث إعاقة إلا فى خمس منها .

إذا افترضنا ـ جدلاً ـ أن كـانت لهـذه الأسلحة بقـية ، فـالمنطق يقـول ، إنها لا بد وأن تتأثر بقصف يقول الأمريكيون أنه كان فائقًا ، ولا بد والحال هذه أن تصيب بحـمـمها ما حولها من بلاد وما حول هذه البلاد من بلاد .

لكن الكاتب حزين ، لأن هذه الضربة لم تؤد إلى إزالة هذا النظام، وأنها كانت مجرد « **شد أذن** » .

يا للهـول !! ومعذرةً لفنان الشعب يوسف وهبى ... أمريكا تلقى على العراق فى أربعة أيام من هذا العام ، ما ألقته فى أربعين يوما من العام ١٩٩١ ، ويدعو الكاتب هذا « شد أذن » .

ما علينا .

يفسر الكاتب « شد الأذن » هذا بأن الغرب « يدرك إنه ما زال فى الثروة العربية النفطية بقـايا قابلة للامتصاص فى المناسبات الأخرى » الكاتب إذن ليس راضيًا عما جـرى ، ولن يرضيه إلا المزيد والمزيد من « **شد الأذن** » .

بعـد ذلك يؤسس الكاتب على « شـد الأذن » هذا مـا جـرى من موقف عربى رسمى متحفظ تجاه هذا العدوان ، وهو ما يعنى بالضرورة أن الدول العـربيـة كـانت تطمح إلى مـا هو أبعـد من « شد الأذن » .. وهذه مغالطة ، فالموقف الرسمى للأنظمة العربية ـ لا أستثنى واحداً منها ـ إنما صدر من مواقع العجز أو الهوان أو التبعية .

أخيراً يستغرب الكاتب ما جرى من رد فعل شعبى عارم على مستوى الوطن العربى كله ، ويوحى بعمالته للنظام العراقى ، لأن لا أحد هتف بسقوط هذا النظام « وهو ما يكشف هويتها ومحركها » .

إلى هذا المدى يصل التزييف بهذا الدكتور ، فيصف المشاعر الإنسانية النبيلة بأنها مأجورة .

نقف عند هذا الحـد ونتـسـاءل ... إذا كـانت الأمـور تعـرف بمقاصدها كما يقول الفقهاء ، فما هى مقاصد هذا الكاتب من مقاله .

هى بالتحديد تحجيم الرد الشعبى العربى علـى هذا العدوان ، وتبرير المواقف المتخاذلة لأنظمة عربية حاكمة ، وتمهيد لمزيد من العدوان .

بعد أن ينتهى الكاتب من تفسيره لهـذه « الضربة » يصير من الواجب علينا تفسير لهذا التفسير ، ونوجزه فى كلمتين **هما «الضمير**

الغائب» ، فقد انقلب هذا الكاتب على نفسه قبل عشرين عامًا وروّج للأكذوبة التى تقول بأن صراعنا مع العدو الصهيونى صراع نفسى ، وشارك فى ندوات عقدت فى هذا الشأن بعواصم غربية ، وبعضها عقد وأهلنا يذبحون فى صابرا وشاتيلا .

وعندما تصدى مثقفونا الوطنيون ــ بكل ألوان طيفهم ــ للتطبيع مع العدو ، ورفض مشاركته فى معارض الكتاب ، كان هو الصوت الوحيد الذى يدعو لهذه المشاركة .

فى هذا السياق أدان الكاتب حرب الاستنزاف ، وأيد قانون الازدراء ، واتهم سليمان خاطر ــ رحمه الله ــ بالجنون ، كما اتهم عادل حسين ــ أبقاه الله ــ بالإرهاب .. والأمثلة أجل من أن تحصى.

لا عجب إذن أن ينسى الكاتب ــ أو يتناسى ــ إن الهدف من هذا العدوان الذى يدعوه ــ تأدبًا ــ ضربة هو تكريس الهيمنة الأمريكية كقطب عالمى وحيد ، وتكريس الهيمنة الصهيونية كقطب إقليمى وحيد ، وإضعاف النظام العربى ، والعودة بالعراق إلى عصر ما قبل الصناعة فى قول ، والعودة به إلى العصر الحجرى فى قول آخر . وتوقيته يتوافق مع عوامل داخلية خاصة بالمعتدى (الآنسة مونيكا مثلاً) وليست خاصةً بنا .

ولا عجب ثانياً أن ينسى الكاتب أويتناسى أن العراقيين صاروا فئران تجارب لأحدث ما أنتجته ترسانات العدوان من سلاح ومقابر لما تقادم من هذا السلاح .

ولا عجب ثالثًا وليس أخيراً أن ينسى الكاتب أو يتناسى أن مائتى طفل عراقى يموتون كل يوم لعدم الغذاء وعدم الدواء .

أيها الكاتب المستفز إتق الله !! .

النفس الكبيرة

١٩٧٥

ذات ليلة خريفية فى دولة عربية خليجية

وحيداً وقفت على الطريق .. أتفكر فى وسيلة أعود بها إلى دارى ...

المدينة بعيدة بعيدة .. والجو موحش ... شعرت بانقباض ..

توقف بسيارته شاب يقاربنى عمراً .

دعانى إلى سيارته .. قبلت .. شكرت .. سألته عن اسمه . قال : رءوف عباس حامد ، مدرس بآداب القاهرة .

أتذكر هذه الواقعة ، كأنها بنت أمس .. هو ـ علمت ـ نسيها .

لم تمتد صلتى بهذا الشاب ، فلم تمتد صلتى بهذه البلد ، ورحلت إلى وطنى بعد يسير .

١٩٨٣ ـ ١٩٨٤

حصلت على درجة الدكتوراه .. رشحنى هذا الشاب ـ وقد صار رئيساً لقسم التاريخ ـ عضواً بهيئة التدريس .

١٩٨٧

عاود هذا الأستاذ ترشيحى معاراً بدولة خليجية .

---

* نشر هذا المقال فى كتاب « دراسات فى التاريخ والثقافة العربية مهداة إلى رءوف عباس حامد » القاهرة ، الدار المصرية اللبنانية ٢٠٠١ .

١٩٩٥ ـ ١٩٩٦

طَوَّح بى زمانى الوغد إلى ديار الغربة .. كنت أتهيأ لدرجة الأستاذية ، فناشتنى الذئاب ، ومن كنت أظنهم صحاباً ولا صحاب .

هُرع رءوف عباس حامد إلى نجدتى فى غربتى ، من غير طلب منى ..

أُحار فى أمر هذا الرجل .. هو يعيش فى زمان غير زماننا ، وفى مكان غير مكاننا .

لم تكن لديه مصلحة عندى ، ولا كانت لدى يد عليه ، فلماذا إذن هذا النمط من السلوك .. نمط أعز من أن يتكرر !!

ربما لم يطالع هذا الكبير كلمات مثل هذه لشاعر كبير .

يقول صلاح عبد الصبور :

هذا زمن الحق الضائع

لا يعرف فيه مقتول من قاتله ومتى قتله

ورءوس الناس على جثث الحيوانات

ورءوس الحيوانات على جثث الناس

فتحسس رأسك

فتحسس رأسك

لكنه ـ يقول أبو الطيب ـ

ألف المروءة مذنشا فكأنه ∴ سُقى اللّبان بها صبياً مرضَعا

أما أنا فأقول : هى النفس الكبيرة .

النفس الكبيرة هى المفتاح لفهم هذه الشخصية الكبيرة ، أو هى الصفة الأم التى تصدر عنها سائر الصفات .

لست أدرى من أين رُفدت هذه النفس وكيف !! .. ولا يبعد أن كانت لأستاذه أحمد عزت عبد االكريم يد فيها ، فهو ـ أى رءوف ـ يذكره ـ إذ يتذكره ـ بالخير كل الخير .

لكن غرس هذا الأستاذ ، لن يثمر إلا فى أرض تعد بالرخاء ، وتنبئ بكل خير ونماء .

علمه أستاذه ، وعلمه أن يعلم نفسه ، فعلم نفسه .. لم يقف عند حد الدكتوراه ، إنما كانت هى البداية ، بل بداية البداية ، ولم يقف عند حد التخصص ، فجاوزه إلى غيره من تخصصات ، وأفاد من هذا كله فى أبحاثه التى جابت أربع جهات الدنيا .

لم يفعل مثلما فعل غيره ـ الكثرة من غيره ـ يكتبون ، ثم يكررون إذ يكتبون ما يكتبون .

أحاط بهموم وطنه ، وأحاط بهموم عصره ، وصار له موقف من العالم حوله ، يلتزم به ، وما يترتب عليه من تبعات .

أضحت الثقافة عنده مسئوليةً ، لا تقف عند أسوار الجامعة ، إنما تجتازها إلى آفاق أبعد من الجامعة .

الأهم من هذا كله أن صار لديه إحساس فائق بالآخرين ، يقترب مما يحس به الآخرون .. وهذا مسلك غريب في زمان ، تقطعت فيه وسائل المواصلات ووشائج الصلات ، وصار كُلٌّ جزيرةً وحيدةً فى عالم تنوشه الذئاب ، ويظفر فيه كل ذى مخلب وناب ، الكذب فيه شريعة ، والنفاق ذريعة ، والغاية تبرر كل دَغَلٍ وشنيعة .

عهدناه فى مجلسه - أيا كان مجلسه - ملتقىً يتحلق حوله تلامذته ومريدوه ، وعارفو فضله ومحبوه .. لم يكونوا جميعهم أصحاب مصالح وأذواء منفعة ومطامح ، فمنهم من أخذوا ببريق هذه الشخصية الكبيرة ، فهرعوا إليها يتفيئون بظلها ، وينهلون بعلمها وفضلها .

وعرفناه أبًا لتلامذته ، حريصًا عليهم وعلى مستقبلهم ، يعطيهم من علمه ما وسعه عطاء ، ويعطيهم من ماله إذا عز لديهم مال .

متى أحصيت فضلك فى كلام ∴ فقد أحصيت حبات الرمالِ

ولأنه نفس كبيرة ، فإن له عالمًا دلف إليه منذ بعيد ؛ عالمًا راقيًا يفارق عوالم أخرى من غير جهة ، وعدا قليل من مال يحميه من غوائل الزمن - وما أدراك ما غوائل الزمن - لم يبخل على نفسه بشىء من سواه .

ومن أجل أن يعيش هذا العالم الجميل ، فقد صدف عن المناصب ، وعن التدافع بالمناكب .

ولكن ..

. لم تصدف عنه هذه المناصب ، وعندما أتت إليه تُجرر أذيالها ، أضاف إليها ولم تضف إليه ، بل خاصمها ، حين أحس بخصام أو شبهة خصام بينها وبين نفسه .

تشهد على ذلك كلية الآداب ومؤسسة الأهرام والجمعية التاريخية ودار الكتب المصرية ، وغيرها مما لا تتسع لها ذاكرة .

ونفسَك أكرمها فإنك إن تَهُن .·. عليك فلن تلقى لها الدهرَ مُكرِما

ولأنه يحترم نفسه ، فهو يحترم غيره ، وفى عهد رئاسته لقسم التاريخ لم يتفرد ـ مع حزمه ـ برأى يفرضه أو يسعى لأن يفرضه ، إنما كان يستمع إلى الصغير ، كما يستمع إلى الكبير ، ويحاول أن يرسى تقاليد يسير عليها العمل فى هذا القسم .

فى هذا السياق لم يقتنص لنفسه مغنماً ، ولم يفترص لغيره مغرماً، إنما كانت الأريحية منهجه ، والمصلحة مدخله ومخرجه .

إتفقنا معه فى الكثير ، واختلفنا معه فى غير يسير ، لكننا كنا نتفق حين نختلف ، على أن تُظِلَّ خلافنا مساحةُ ود .

أحياناً كنا نلمس صرامةً فى سلوكه ، ربما أغضبت بعضًا ممن أحبوه ، لكنهم سرعان ما يرتفع عنهم غضبهم ، لأنهم عرفوا جوهره ، وعركوا مظهره ومخبره .

نتلفت حولنا ، ورغمًا عن جهامة ما حولنا ، يلوح لنا بارق في مستقبل واعد ، إذ نشاهد نفوسًا كبيرةً ، وردت على هذه الجامعة العريقة والكبيرة ليس أولها جمال حمدان ، وليس آخرها رءوف عباس حامد .

رءوف عباس حامد يجتاز اليوم إلى عامه الستين ، وما يزال لديه فيضٌ من عطاء ، وما يزال لدينا فيضٌ من وفاء ، فأكرِم به من عطاء ، وأعظِم به من وفاء .

من يوميات الكويت

الكويت

ليلة ١٦/ ١٧ ديسمبر ١٩٩٨

إحتفال بسيط بعيد ميلاد ولدى أدهم ..

منتصف الليل .. حال مـن الملل .. أقلّب فى صفحات جريدة الحيـاة .. أداعب الريموت .. يصل الخبـر بأنه بدأ ضـرب العـراق .. استغربت فالجرائد التى طالعتها اليوم وأمس وأمس الأول لاتجعل الصدارة لأخبار العراق .

الفضائية المصريـة تعرض فيلماً أو مسلسلاً ليونس شلبى وسعاد نصر .

أريد أن أكتب مقالاً أرسله إلى مصر .. ولكن هل أضمن نشره .. لقد خذلتنى **الأهالى** غير مرة ، بدعوى أن مقالاتى **«شدّة شوية»** .

الخميس ١٩٩٨/١٢/١٧

الفضائية المصرية تصف العدوان بأنه ضربة !!

أمريكا تلوح لسوريا باستكمال المسار السورى ـ اللبنانى .. ربمـا بسبب بيان دول إعلان دمشق الذى يحمـل صداماً المسئوليـة .

الجمعة ١٩٩٨/١٢/١٨

أديت صلاة الجمعة .. الخطيب (مصرى) يدين حاكم العراق المتهور .. ودعوات إلى أهل العراق بأن يرفع الله الغمة عنهم .

سكوت ريتر (كبير مفتشى الأونسكوم) يهاجم بتلر (رئيس الأونسكوم) .

الكويت تنفى فى بيان رسمى قيام طائرات بريطانية من أراضيها !!

مراسل الجزيرة فى الكويت يصف الطلعات البريطانية منها بأنها «طلعات احترازية» .. **فيصل القاسم يبتسم** .

جريدة الوطن فى جولة لها بالشارع ، تستطلع رأى المواطنين الكويتيين بشأن الضربة .. يقول أحدهم : « **إن هذه الضربة سوف تؤدى إلى إنعاش البورصة** » .

مصر تعرب عن أسفها لما جرى .. طارق عزيز يعرب عن أسفه لهذا الأسف ، ويقول :«كأنه أسف لحادث سيارة» !!

الفضائية المصرية .. **اكتأبت** .. أدير الريموت إلى M.B.C فأشاهد ردود فعل الشارع المصرى بعد صلاة الجمعة .. **ابتجهت** ..

عمود كامل لفؤاد الهاشم فى الوطن بعنوان « **تسلم إيدك ياكلينتون** » .

آل جور يعلن أن الضربة سوف تستمر خلال شهر الصوم .

الفاتيكان يصف الهجمات الأمريكية بأنها عدوان .

السبت ١٩/١٢/١٩٩٨

زوجتى تقول : إن زميلاتها بالمدرسة التى تعمل بها ـ ومعظمهن كويتيات ـ أبدين حزنهن لما جرى .. بعضهن بكين .

أطالع وجه كلينتون الكريه يعتذر للعالم الإسلامى عما فرط فى حق المسلمين قبيل بداية شهر الصوم .

الجماهير فى صنعاء ترفع صور عبدالناصر وصدام .

ذهبت إلى صديقى (....) لأفرغ جزءاً من شحنة الغضب عندى ... هو غاضب مثلى .. أشاهد معه على الهواء محاكمة كلينتون .. مجلس الشيوخ يدينه .. **طلبت من زوجة صديقى زغرودة** .

مفتى الكويت يرد على فتوى شيخ الأزهر بالجهاد ، ويدعو إلى الفصل بين الدين والسياسة ، ويصف الحرب الحالية بأنها **حرب سياسية** !!! لايجب فيها الجهاد، وأكد أن الجهاد يكون لإعلاء كلمة الله ، وليس لإعلاء صدام حسين .

البابا يدين العدوان ، ويصف أمريكا بأنها قاض غير عادل .

ذهبت إلى المكتبة ، فلم أجد الشعب ولا الأهالى .

القبس تنشر موضوعاً عن المتحدث باسم القوات الجوية البريطانية ، عن تنفيذ ثلاث غارات من أرض الكويت .

البرلمان الروسى يوافق بالإجماع على إقرار نداء إلى مونيكا للمساعدة فى وقف العدوان .

الأحد ٢٠/١٢/١٩٩٨

آخر غارة قبل وقف القصف ، أصابت ملجعاً للأيتام .

الشيخ القرضاوى يعقد مقارنةً بين التتار والأمريكان .

المظاهرات فى مصر تدعو لطرد السفير الأمريكى .... والسفير البريطانى... **والسفير الكويتى .**

ذهبت إلى المكتبة ولليوم الثانى لا أجد الأهالى ولا الشعب .

فتاة من الدوحة تسأل فى قناة الجزيرة عن رأى الشرع فى الطائرات التى تنطلق من أرض عربية مسلمة لتضرب أرضاً عربيةً مسلمة ، **هل يجوز لأهلها صيام** ...؟؟ .

صديقى المصرى (....) يتصل بى من عُمان كعادته فى بداية شهر الصوم .. حديث عادى .. تطرّق إلى ماجرى ، ويقول : إنه للأسف لايستطيع أن يعبر عن شعوره « **وانت عارف ليه** » ، ثم يضيف إنه اكتفى وزملاؤه بالبكاء .

طيار أمريكى يكتب على صاروخه « **هذه هدية رمضان** » .

أولبرايت تقول إنها أجرت اتصالات بالزعماء العرب جميعهم، وأنهم أعربوا عن مساندتهم للهجوم ، وإن أبدوا قلقهم إزاء الشعب العراقى .

حريدة الأخبار تصف الضربة بأنها عدوان .. **ياسبحان الله !! تقدم عظيم** .

فى نشرة الأخبار بالفضائية البحرينية ... مذيع لايتمالك نفسه ويجهش بالبكاء ... زميل له يستكملها .

الاثنين ١٩٩٨/١٢/٢١

منظمات حقوقية مصرية تصدر بياناً عنوانه «**أفرجوا عن الشعب المصرى ليتضامن مع الشعب العراقى**» .

ظفرت اليوم بالأهالى ولم أظفر بالشعب .. لم أجد الحياة .. صاحب المكتبة يقول : إن حياة الأمس سحبت من المكتبة ، بعد أن باع لى نسخةً منها.

القبس تعلن أن الغارات كلفت نصف مليار دولار .. **ترى من سيدفع الفاتورة** .

أحمد الباقر فى مقال بالقبس يقول : إن أمريكا أرحم بالشعب العراقى من صدام .

الثلاثاء ١٩٩٨/١٢/٢٢

الصورة الرئيسية بالسياسة جنود كويتيون وأمريكيون يتناولون طعام الإفطار .

بحثت اليوم عن الشعب .. لم أجدها ، كما لم أجد الأسبوع .. علمت من إعلان بالأهرام أن الأخيرة بها ملف خاص عن العدوان .

الأربعاء ١٩٩٨/١٢/٢٣

واشنطن تعلن عن ثقتها فى أنها حظيت بتأييد ضمنى من الزعماء العرب .

الشرطة المصرية تمنع مسيرةً سلميةً للمعارضة من مقر الحزب الناصرى إلى القصر الجمهورى .. المتظاهرون يطالبون بكسر الحصار عن العراق ، وإجراء إصلاحات سياسية .

الخميس ١٩٩٨/١٢/٢٤

أخيراً تم الإفراج عن الشعب .

الإثنين ١٩٩٨/١٢/٢٨

أسامة الباز يعلن إرجاء القمة العربية ، لعدم موافقة دول عربية على حضور العراق ، ويرجح مؤتمراً على مستوى وزراء الخارجية .

الأهرام يكتب عن احتمال أن يكون العدوان القادم على ليبيا، بعد التهديدات الأمريكية الأخيرة .

حمد بن جاسم بن جبر (وزير خارجية قطر) يقول فـى الجزيرة : **«الجميع كانوا يعلمون بالضربة ، ويوافقون عليها»** .

ذهبت إلى الصيدلية .. سمعت حديثاً جانبياً بين الصيدلى (مصرى) وشاب يعلق على مافعلته الطائرات الأمريكية فيقول : **«بكره بعد العيد ياخد على دماغه»** .. انصرف الشاب .. سألت الصيدلى : « هل هو مصرى؟؟ » أجاب نعم .. سكت ... سألنى: لماذا سكت ؟؟ .. قلت : ماذا أقول !! قال : «ماذا نفعل إلا الشجب» قلت : **«لو كنت أنا أو أنت فى مكان صدام لضربوا»** .

الخميس ١٩٩٨/١٢/٣١

عام مضى وعام يجيء .. دقائق قبل منتصف الليل .. لم أكتب منذ يومين، كنت مشغولاً بالرد على مقال مستفز لكاتب مستفز هو **عبد العظيم رمضان** .

نهاراً فى طريق العودة إلى سكنى ، استمعت إلى تحليل سياسى بإذاعة الكويت .. المحلل يتحدث عن العراق وحصار العراق، ويقول : «إن ماهيأه اتفاق النفط للغذاء ، يجعل كل عراقى يأخذ كفايته من غذاء ودواء .. وأنه على العكس إذا رفع الحصار ، فإن الأزمة ستشتد ، لأن جزءاً هامًا من عوائد النفط سوى تذهب إلى التسليح ، لذا فلا أفضل من هذه الحال» .. (**كذا**) !!

طالعت الطليعة .. جريدة أسبوعية ، كنت أعلم سابق انتمائها إلى حركة القوميين العرب .. لهجتها أخف بكثير ، والعناوين الرئيسية تتصل بأحوال داخلية ؛ منها قضية الناقلات ، المتهم فيها شيخ من شيوخ الأسرة الحاكمة وآخرون .

السبت ١٩٩٩/١/٢

سمسم العجيب .. سمير رجب ، ويدعونه أحيانًا بالكاتب

الكبيـر !! (**الله يرحمك ياعـقـاد**) يهـاجم حكام العـراق ويصـفـهـم «بعصابة الأربعة»... **حتى أنت ياسمير !!**

السبت ١٩٩٩/١/٩

شغلت أسبوعاً كاملاً بأعمال الإمتحانات ..

مـهـاترات وشتـائم بين الحكومـات العربية وحـديث عن «**النعوش المصرية الطائرة**» .

خبراء عراقيون يقدرون عدد الشهداء بعشرة آلاف .

سكوت ريتر يعلن أن أمريكا حصلت من الأونسكوم على معلومات استخبارية ، أسهمت في الإعداد «لثعلب الصحراء» كما أنها تملى شروطها على اللجنة ..

الرئيس مبارك ينتقد صداماً ، لأنه يستفز الأمريكيين ، وينتقده لأنه يرفض المساعدات الإنسانية المقدمة له .

الخميس ١٩٩٩/١/١٤

فضـائيـة خليـجيـة تصف تصـدى العراق للاستـفزازات الأمـريكيـة والبريطانية بأنها عدوان ، وأن هـؤلاء يردون على العدوان بالمثل.. **ياه !!**

إلى هذا الحد .

صافرات إنذار سمعت حوالى الواحدة ظهراً .

السبت ١٩٩٩/١/١٦

مبارك فى خطابه بمناسبة ليلة القدر يعلن عن مساندة الشعب العراقى ، ومعارضة أى انتهاك لسيادته .

تقدم واضح فى الموقف المصرى ، فلا حديث عن «النظام العراقى» ولا «الشرعية الدولية» ولا «تهديد جيرانه» ولا غير ذلك من مصطلحات ملتبسة .

مقال لعبد العظيم رمضان .. حديث معاد ومكرور .. اللطيف أنه يربط بين التأييد الفلسطينى لغزو الكويت وبين المظاهرات التى اشتعلت فى فلسطين ضد الضربة الأمريكية (**كذا !!**) .

الثلاثاء ١٩٩٩/١/١٩

صحفى كويتى يزور إسرائيل ، ويلتقى بمسئولين إسرائيليين بينهم نتنياهو ، ثم يتعرض للمساءلة عقب عودته .. شيخ كويتى يعلق ويقول : « إن أعداء السلام فى الكويت لايعرفون أن لبنى إسرائيل دوراً

إيجابيًا فى تحرير الكويت !! » ويدلل على ذلك بعدم رد إسرائيل على صواريخ صدام ، حتى لايتأثر التحالف الدولى .

طالعت فى الأسبوع مقالاً لكاتب ، ورد على لسانه تعبير **«العدو الأمريكى»**... طربت .. هذه أول مرة ، أطالع فيها مثل هذا التعبير .

الجمعة ١٩٩٩/١/٢٢

مصطفى بكرى يرتفع ضغطه ، عندما يطالع مقالاً لعبد العظيم رمضان.. **حالى حاله أعانه الله** .

السبت ١٩٩٩/١/٢٣

بشرى !! توقف عبد العظيم رمضان عن مقالاته المستفزة .

الاثنين ١٩٩٩/١/٢٥

الصحاف ينسحب من اجتماع وزراء الخارجية العرب «حتى لا نشترك فى هذا الوحل ، لأنه اجتماع خائب غير مجد» .

الثلاثاء ١٩٩٩/١/٢٦

بتلر يقـدم تقـريراً جـديداً إلى مـجلس الأمن ، وتظهـر صـورته فى التليفزيون **وهو يمضغ لبانة** .

الأربعاء ١٩٩٩/١/٢٧

رحبت واشنطن ولندن وباريس ببيان الاجتماع الوزارى الذى امتنع عـن إدانة العـدوان ، ودعا العراق إلـى الالتزام بالشرعية الدولية !!

أخبار سعيدة .. أوبريت **«الحلم العربى»** يكتسح أغان مثل **كامننّا** !!

فى الذكـرى المئـوية لفـتح الرياض ، قـدمت شبكة أوربت أوبريت غنائية عن مآثر الملك عبد العزيز من كلمات الأمير الشاعر بدر بن عبد المحسن **والشاعر عبد الرحمن الأبنودى !!** .. **تصوروا** !!

الخميس ١٩٩٩/١/٢٨

أولبرايت تقوم بجولة فى المنطقة ، عقب انتهـاء اجتمـاع وزراء الخارجية العـرب التشاورى .. الأرجـح لأن تعطى توجيهات جديدة ..

مـقـال لكلوفيس مـقـصـود فى الحيـاة عنوانه «ليت هذا التشـاور ماحصل » .

السبت ١٩٩٩/١/٣٠

عبد العظيم رمضـان يعاود استفزازه فى مقال عن «خفايا مسيرة ابن سعود التاريخية» ، ثم لايلبث أن يقحـم العراق وصدام حسين فى مقاله .

نبيل زكى فى الأهالى يقول : إن وزراء الخارجية العرب يتأثرون بحركة الرياح القادمة من واشنطن .

تشومسكى (عالم اللغة الأمريكى اليهودى) يطالب بمحاكمة كلينتون ، لابسبب قضية مونيكا لوينسكى ، وإنما لضربه العراق وحصاره الذى أدى إلى موت مواطنين .

الثلاثاء ١٩٩٩/٢/٢

حليم بركات (الأستاذ بجامعة جورجتاون) يقول فى مقال له بالحياة : **«إن وجه العراق الحزين الغاضب سوف يطارد العرب إلى الأبد»** .

أخيراً أعلن بتلر أنه لن يجدد رئاسته للجنة التفتيش عندما تنتهى مدته فى يونيو القادم ... **الحمد لله غمة وانزاحت .. لن أطالع بعد اليوم وجهه الكئيب وهو يمضغ اللبانة** .

سمير سرحان يعلن فى معرض الكتاب باسم المثقفين مبايعته للرئيس مبارك.. مع احترامى للرئيس مبارك .. من الذى فوض هذا الدكتور هذه المبايعة؟؟ !! **يسقط النفاق !!** .

الأحد ١٩٩٩/٢/٧

سعيد بموقف أشرف البيومى من الندوة التى دعى إليها السفير الأمريكى بالمعرض .. المظاهرات تقول : ينصر دينك يا أشرف ! ... شكراً له ولهم .

خبر أثلج قلبى .. وصول وفد عسكرى روسى إلى بغداد ، لبحث حاجات العراق من الأسلحة التقليدية .

سلامة أحمد سلامة يكتب منتقداً الاجتماع التشاورى ، وأنه مدعاة لاغتباط أمريكا ، **كاتب شريف أحترمه** .. **يذكرنى بأحمد بهاء الدين . أكثر الله من أمثاله** .

الاثنين ١٩٩٩/٢/٨

استفتاء بعد يومين على رئاسة جديدة فى سورية .. **وحافظ الأسد إلى الأبد** .

روبرتسون وزير الدفاع البريطانى يعرب عن أسفه لاشتراك بريطانيا فى عملية ثعلب الصحراء .. الأسف نفسه أعرب عنه وزراء الخارجية العرب والأنظمة العربية .. **الجميع يأسفون** .. **وآسف لأسفهم** .

السبت ١٩٩٩/٢/١٣

٢١٩ فقط قالوا لا لولاية خامسة للرئيس حافظ الأسد (**سبع سنوات فقط**) النسبة ٩٨٫٩٨٧٪ (**فقط!!**) .

باركت لزميل سورى ، وقلت له : إن النسبة فى مصر أقل قليلاً . قال : «لأن عندكم معارضة» .. **ضحكت** .. زميل سورى آخر قال : «لقد تعلمنا منكم ، وقد يتفوق التلميذ فى أحيان على أستاذه» **تماديت فى الضحك** .

معارض سورى يقول فى قناة الجزيرة أن ٤٥ ألف سورياً قتلوا فى أحداث حماة ١٩٨٢ ، وكاتب بريطانى متخصص فى الشئون السورية (باتريك سيل) يستدرك على هذا الرقم ، ويقول إنه بين ١٥ ألفاً و ٢٥ ألفاً ... **لا تعليق** .

الاثنين ١٩٩٩/٢/١٥

نتنياهو يقول فى حملته الانتخابية «إن القادة العرب يتصببون عرقاً، ويضطرون إلى ابتلاع مطالبهم عندما يواجهوننى» .

الأربعاء ١٩٩٩/٢/١٧

أسبوعان الآن ولا أجد الأسبوع .. لابد وأن هناك شيئاً ما .

مؤتمر القمة لم يعقد لأنه من الضرورى «أن يعد له الإعداد الجيد» ... ماذا عن المؤتمر الدولى الذى عقد قبل ثلاث سنوات فى **شرم الشيخ** لمناهضة الإرهاب والذى دعى بـ **«مؤتمر صناع السلام»** لقد تم عقده بعد أربعة أيام فقط من الدعوة إليه ، ولم يعد له الإعداد الجيد إياه .

مقال لجلال أمين فى الشعب عن لطفى الخولى «الصائد فى أعالى البحار» ... قطعة أدبية جميلة تذكرنى بأبيه رحمه الله ... وهو أيضاً مقال سياسى جيد وعميق .. **أحسن تقييم الرجل فى وصفه بالذكاء والجرأة ، ولكن فى غير الحق ، فقد كان دائماً مايؤدى الدور الذى تطلبه منه الدولة .**

الخميس ١٩٩٩/٢/١٨

فَرِحٌ بتجدد الحرب بين إثيوبيا وإريتريا .. هذه الأخيرة تنكرت لنا بعد استقلالها .. الحرب بينهما لاتعنينى .

حزين لأسر عبدالله أوجلان .. إنه بطل أيامنا .

الإثنين ١٩٩٩/٢/٢٢

ضجة فى مجلس الأمة الكويتى عن صفقة لشراء مدفع أمريكى ، تبين بعد دفع ٤٥٠ مليون دولاراً أنه خردة (**سكراب**) !!

الأربعاء ١٩٩٩/٣/٣

أخبار سعيدة .. مقتل جنرال إسرائيلى فى جنوبى لبنان .. جملة من قتل من الإسرائيليين فى الأسبوع الأخير سبعة .. أحدهم للأسف درزى .

السبت ١٩٩٩/٣/٦ .

فشل التحضير لاجتماع لجنة المتابعة العربية التى تشكلت فى اجتماع وزراء الخارجية ، ومصدر مسئول يصرح للحياة ، بأن عقد الاجتماع «ربما يتطلب شهوراً أو سنوات» .

الثلاثاء ١٩٩٩/٣/٩

سفير أمريكى سابق يصرح فى الاتجاه المعاكس بأنه يجب أن تمتد مساحة الحظر الجوى ، لتشمل سماء العراق كلها .. **العراق إذن تحول الى جمهورية موز ، ولافارق بين صدام ونورييجا ... تبًا لكم ياعرب !!**

الخميس ١٩٩٩/٣/١١

مساعد وزير الخارجية المصرى يكذّب فى مجلس الشعب ما أورده

إبراهيم سعدة ، بشأن المصريين الذين ماتوا فى العراق .. ترى هل يتوقف سعدة عن نهشه لجسد الشعب العراقى المسكين .. ياسعدة ! لماذا لاتكتب عن القتلى من الأسرى المصريين فى سيناء فى سنتى ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ؟؟

السبت ١٩٩٩/٣/١٣

كوهين يعلن فى ختام جولته الخليجية : « نحن راضون جداً عن الموقف فى الخليج ، وعلاقاتنا مع دوله ، وكل ما طلبناه ووفق عليه» .

الأحد ١٩٩٩/٣/١٤

كوهين صار يعرف بعزرائيل الخليج .. مات شيخ البحرين بعد لقائه به ، وماتت زوجة الملك فهد بعد لقائه به !!

الخميس ١٩٩٩/٣/١٨

وزراء مجلس التعاون يدّعون فى اجتماعهم أن العراق يساعد على ضربه برفضه التعاون مع الأمم المتحدة ومجلس الأمن .

أقول : «تانى» !!

الكويت تجمد صفقة المدافع الأمريكية الاسكراب .. **مبروك** ..

الأحد ١٩٩٩/٣/٢١

توقف قصف العراق يومين على غير العادة .. ترى هل يتوقف تماماً .. لا أظن .



زمن العجائب

عجبت من احتفائنا **بزويل** .. هذا الاحتفاء الذى جاوز كل الحدود !! .. أحمد زويل أمريكى ، وإن احتفظ بالجنسية المصرية .. حاضره ومستقبله فى أمريكا ، ومصر بالنسبة له هى الصبا والشباب ، يشتاق إليها ، مثلما يشتاق يونانيون ـ مصريون ، التقيت بهم فى بعض سفراتى ، ولمست منهم حنيناً إلى الماضى أى مصر .. **نوستالجيا** .

نصف علماء أمريكا ـ وبعضهم فاز بجوائز نوبل ـ ولدوا خارج أمريكا ، ولم يقل أحد أنهم ينتمون إلى جنسيات الميلاد .

كيف يكون مصرياً من أقام سنةً كاملةً فى معهد وايزمان بإسرائيل، وشارك فى إعداد جيل من العلماء فى مجال له صلة بأدوات الحرب الفتاكة (الكيمياء وبحوث الليزر) ؟

إنه فعل مالم يفعله كاتب مصرى عاشق لإسرائيل ، هو على سالم !!

عجبت ممن ملئوا الدنيا ضجيجاً بعد رحيل **حمدان** ، وملئوها ضجيجًا بعد رحيل **سندريلا** !! ... إنهما ـ معاً ـ كانا فى حاجة إلى قدر يسير من هذا الضجيج قبيل الرحيل .

عجبت ممن ملئوا الدنيا ضجيجاً بعد مصادرة الوليمة ، ومصادرة روايات ثلاث بعدها ، ولم يملئوها ضجيجاً بعد مصادرة حزب العمل وجريدة حزب العمل !! ، ولا بقانون للطوارئ ، يتم تجديده دوريًا منذ عشرين عامًا .

عجبت من حصول أنيس منصور علي جائزة مبارك !! .. **الفارق بينه وبين شوقي ضيف ، هو الفارق بين شعبان عبدالرحيم وبين عبدالوهاب .**

عجبت من مثقفين كانوا يتدافعون الأمس إلي **المربد** ، وصاروا يتدافعون اليوم إلي **الجنادرية** !!

عجبت من مسئولين كبار، تطاردهم تجاوزات - أو شبهة تجاوزات - ثم يعينون أعضاءً في مجلس الشوري ، أي مجلس الحكماء في قول، ومجلس الشيوخ في قول آخر !!

عجبت من تصريح صدر بإصدار جريدة ساقطة (**النبأ**) وتصريح لم يصدر بإصدار مجلة سامقة (**النداء**) !!

عجبت من قرار صدر بتحويل جزيرتين مثمرتين (الوراق والذهب) إلي منفعة عامة .. ومن ثم إلي مستثمرين !!

أيتها المنفعة العامة : كم من الجرائم ترتكب باسمك .

عجبت من أسرى مصريين يدفنون أحياءً فى حربى ١٩٥٦ و١٩٦٧ .

علمنا بخبرهم ممن ذبحهم ، ولا نعلم ماذا عملنا بعد أن علمنا ..

لقد أقامت إسرائيل الدنيا وأقعدتها سنوات وسنوات ، لأن أحد جنودها واسمه رون أراد مفقود فى جنوبى لبنان .

عجبت منهم فى الغرب يتحدثون عن حقوق الإنسان نظرياً ، وحقوق الإنسان اليهودى عمليًا ، ويتحدثون عن الإرهاب نظرياً ، والإرهاب العربى عملياً .

عجبت ـمن مناورات ، تدعى **بالنجم الساطع** ، تجريها أمريكا ـ فيما تزعم ـ مع الحليف المصرى .. **أتساءل** : **حليف ضد من !!**

عجبت من إشراف القضاء على الانتخابات داخل اللجان ، وإشراف الداخلية خارجها !! النتيجة معروفة ...

والمزيد من العجائب .



كتب المؤلف

١ ـ صقر قريش ؛ عبد الرحمن الداخل . القاهرة ، دار الكاتب العربى ، ١٩٦٨ . (أعلام العرب ـ ٧٦) نفد .

٢ ـ عن العرب والبحر ؛ الطبعة الثانية . القاهرة ، ٢٠٠١ (الطبعة الأولى ١٩٨٩) .

٣ ـ أندلسيات ؛ الطبعة الثانية . القاهرة ، ٢٠٠١ (الطبعة الأولى ١٩٨٩) .

٤ ـ تاريخ النصارى فى الأندلس . القاهرة ، ١٩٩٣ .

٥ ـ الزُّط والأصول الأولى لتاريخ الغجر . القاهرة ، ١٩٩٤ .

٦ ـ الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافية . القاهرة ، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية ، ١٩٩٥ .

٧ ـ قراءة جديدة فى عهد عمر . القاهرة ، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية ، ١٩٩٦ .

٨ ـ العقد الثمين فى تاريخ المسلمين ؛ الطبعة الثانية . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ٢٠٠١ (الطبعة الأولى ، الكويت ، دار الكتاب الحديث ١٩٩٦) .